الامام يحيى بن حميد الدين

المتوكل على الله

اليمن

حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الاحمر الى تعز فماويه فَقعْطبه . شمالاً خط يمر في بلاد خولان وبني بشر الى نجران . غرباً البحر الاحمر من الشيخ سعيد الى ميدي وشرقاً البحر السافي او الربع الخالي .

الويته : لواء صنعاء ولواء الحديدة ولواء تعز ولواء صعده .

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف مليون .

مساحته : نحو اربعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو اسلام وبنو مطر والمكارمه .

اهم مدنه : صنعاء وذَمار ويريم وإبْ وتعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخه .

مذاهبه : الزيدّية والاسماعيلية والسنة (شوافع) واليهود .



حضرة الامام يحيى

بريشة المؤلف

التبليغ في الترويع

«والله نذبحه» – « سفرك الى اليمن مستحيل » – وصولنا الى عدن « بامر من الحاكم »– القنصل الاميركي – وكيل بريطانيا العظمى – المعري وعمر الخيام – الخطر في السفر الى اليمن – « لا يمكننا ان نحميك»– الاشاعات والشبهات – سلطان لحج يرحب بنا – زيارة بقيود – الاعتراض على رفيقي « الحجازي » – الجواسيس – السياسة في الترويع – وكيل الامام يحيى في عدن – اللغة العربية في المهجر – سفير يحمل سيفاً وخنجراً – المفسدون – حبال المحنة – وميض الامل – كتاب من دار الاعتماد – كتاب من وكيل الامـــام – الجاسوس النائب .

كنت ذات يوم في ادارة احدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل غريب اللهجة لا اللسان يبغي كتاباً يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية . فسألته : من اين أنت ؟فقال: من اليمن . وكنت يومئذ في اهبة السفر الى بلاد العرب فأستأنست بالرجل وبلهجته وقلت، وانا راغب في الاستفادة: اجلس وحدثني عن بلادكم . فقال على الفور : بلادنا طيبة الهواء والماء ولكن اهلها دائماً في احتراب . فقلت،ومن يحاربون ؟ فاجاب: حاربنا الاتراك،وحاربنا القبائل،وحاربنا الادريسي،ويحارب دائماً بعضنا بعضاً.

– وهل الامام يحيى حاكم اليمن كله ؟

– لا . هو يحكم جزءاً صغيراً منه . نحن اهل اليمن لا نخضع لاحد دائماً. نحب الحرية ونحارب من اجلها. نذبح اقرب الناس الينا لنكون مستقلين.نقول للامام:هذا الرجل لا نشتهيه (لا نريده) حاكماً،ونقيم منا شيخاً علينا ونقول له : انت حاكمنا انت امامنا .

قلت : واذا ابى عامل الامام التنازل عن منصبه ؟ فاجاب بلهجة هادئة : والله نذبحه .

ثم سألته ما اذا كان من اجانب في اليمن فقال : لا . وانه لا يؤذن لهم لا بالذهاب ولا بالاقامة هناك .

— واذا جاءكم الاجنبي ؟

— والله نذبحه .

— واذا ساح متنكراً .

— اذا عرفناه فوالله نذبحه .

— اوّ ما يؤذن للسوري وهو عربي مثلكم ؟

— اذا كان مسيحيا فهو والفرنجي سواء عند اهل اليمن. وقد يحميه لسانه او يصرف النظر عنه .

قلت واذا انكشف امره فعرفتموه ؟ فأجاب الرجل دون ان يغير لهجته الناعمة اللطيفة : والله نذبحه . كأنه يقول نضيفه ونكرمه .

سافرت من نيويورك وفيّ من قصة «نذبحه» ما يضحك ويزعج معاً . ثم رُوّعت في مصر . قلت في بيت بعض الاصدقاء اني مسافر الى اليمن وكان الاديب السوري نعوم شقير [1] حاضراً فقال على الفور : غير ممكن، فذكرني رحمه الله بالقصة وحاقت بي اشباح من بلاد «نذبحه» فقلت : ولماذا؟ هل من خوف على حياتي ؟ فاجابني ثانية . مستحيل، غير ممكن. ثم صرح بما فيه بعض الاطمئنان اذ قال : لا يأذن بذلك اولياء الامر .

— ومن هم اولياء الامر ؟

— الانكليز .

(١) له تآليف ادبية وتاريخية منها « تاريخ السودان » وكان قبل وفاته يشتغل في تاليف « تاريخ الحج »

– وهل للانكليز سيادة في اليمن ؟

– هم في عدن يرصدون الابواب . ما لك واليمن ؟ قد يأذنون بزيارة سلطان لحج وهذا يكفي . في اليمن حرب اليوم ، والاخطار كثيرة ... زد على ذلك ...

ولم يزد شيئاً جديداً . سكت فروّع ثم قال : مستحيل سفرك الى اليمن مستحيل . ودعاني للعشاء في بيته . فقلت : اني اقبل دعوتك بشرط الا تقول ان سفري الى صنعاء مستحيل فقبل الشرط رحمه الله وما لمسنا في تلك الليلة في الحديث حاشية من حواشي اليمن .

جئت الى جدّه واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين يني . وخطر لي ان لا بأس بل لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب تلطفاً سؤلي . فسافرنا متوكلين على الله ، انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً ، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وكانت العلائق بين الانكليز والملك متراخية في ذاك الحين كما اسلفت القول .

وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد ان اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلاً : بامر من الحاكم فقلت : وهل هو امر عام او انه يختص بنا فقط ؟ فأجاب : هو امر عام يا سيدي . ثم اخذ عنواننا ووعدنا بان يعيد الجوازات الينا في ذاك اليوم ولكن ذاك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا انه لا يبر دائماً بوعده .

وقد كنت احمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطن فقدمته للقنصل الاميركي وسألته ان يطلب من الحاكم اعادة جوازي . ثم اعلمته بقصدي فصفر مدهوشاً ثم قال : وقد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك .. انصحك لا تسافر – هذا اذا اذن لك .. في البلاد حرب اليوم ، والطرق

غير امينة ، وانا لا اقدر ان احميك .

فقلت وكاد يملكني الغيظ : اسمع يا رجل ، قد تنازلت في العاصمة وفي الوزارة الخارجية عن حقوقي كلها . ولا اسألك الآن غير كتاب تكتبه الى الحاكم تعرفني اليه وتقول له اني ابغي مقابلته . فكتب القنصل الكتاب في الحال ولكن الحاكم ابطأ في الجواب كما ابطأ في اعادة الجوازات .

جاءني القنصل صباح اليوم الثالث وفيه بعض الاضطراب يقول : لست ادري ما السبب في التأخير ولكني اجتمعت في النادي مساء البارحة بالمعاون الاول . تعال نزوره الآن . فذهبنا الى دار الوكالة فاستقبلنا المعاون قائلاً للقنصل : قد كتب اليك الجنرال وعين هذا اليوم للمقابلة . وتلطف حضرته بان قابلنا في تلك الساعة . دخلنا الى مكتب الجنرال سكوت وكيل بريطانيا والحاكم المدني والعسكري في عدن ، فاذا هو كهل طويل القامة طلق المحيا . صافحنا وامر بالجلوس فجلس معنا المايجر ريلي معاونـــه الاول وكان القنصل اول المتكلمين . ثم قال الجنرال يخاطبني : قيل لي انك شاعر فقلت صدق من اخبرك . فضحك وتتبع الموضوع فكان الحديث في شعراء العرب والعجم فذكر الجنرال عمر الخيام ، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به اكثر من سواهم لانه بشير الخمر واللهو والغناء . ثم قال : اما الشاعر الذي ترجمته الى اللغة الانكليزية . . فساعدته في لفظ اسم ابي العلاء المعري . وشرحت اجابة لطلبه الفرق بين الشاعرين : فلسفة المعري عقلية وفلسفة الخيام محض حسية .

عجبني من الجنرال انه لم يفاجئني ، فيجبهني ، كما يفعل موظف اميركي ، في الحديث عما ابغي منه . وكان في ذلك اشبه بموظف شرقي . ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة . تطرقنا من الشعر الى العقائد الدينية ثم الى السياحة فجهرت بقصدي فقال : او لا

تهمك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكنّ في السفر الى اليمن خطراً اكيداً ، خطراً كبيراً على المسيحيين ونحن لا نستطيع ان نحميك في ما تجاوز حدودنا .

فقلت : يا حضرة الجنرال ، هذا قنصلي وقد غسل يديه مثل بيلاطس في قديم الزمان . وانا راضٍ بذلك . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي أيجوز لي ان اطلبها منكم ؟.. اني مسافر الى صنعاء يا حضرة الجنرال وليس لي مهمة سياسية.. لا علاقة لي باية حكومة من حكومات العالم . الا اني احب العرب ، وانا اصلاً منهم ، واحب في سياحتي ان اخدمهم ما استطعت . فاذا تأكدت بعد البحث والمشاهدة انهم في حاجة الى مساعدة انكلترا انصح لهم بالتفاهم واحثهم عليه . واني اجهر امامك وامام قنصل اميركا بذلك لعلمي اننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن ولا مطامع لنا في البلاد العربية. فاذا كنت استطيع ان اخدم انكلترا في ما اعتقده نافعاً للعرب افعل ذلك مسروراً ومجاناً . لا اسألكم مكافأة غير اذنٍ بالسفر الى صنعاء . واذا مهدتم لي السفر الى نجد كذلك اكون لكم شاكراً ولمصلحة العرب خادماً اميناً .

فقال الجنرال ، لا دخل لحكومة عدن بنجد . اما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوف بالاخطار وخصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا أذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود .

فقلت : وهل تريد ان اكتب لكم صكاً اتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلاً : سأنظر في الامر واكتب اليكم قريباً .

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة: يظهر ان الجنرال يعرفك

وسأبحث لاعرف بعض ما يعرفه او يظنه غير ما سمعناه الآن. وما كان متوانياً او مبطئاً . فاوقفني في اليوم التالي على ما كنت اجهله من غرائب الامور التي اصبحت في البلد حديث الناس .

اولها ، اني رسول الملك حسين الى الامام يحيى . والبرهان على ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي . فكيف يأذن لنا الانكليز بالسفر الى صنعاء وهم لا يرتاحون الى عقد معاهدة بين الملك والامام .

وثانيها ، اني قادم من اميركا من قبل الشركات المالية ابغي امتيازات من حاكم اليمن . والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بامري . فكيف يأذنون بالسفر الى صنعاء وهم المنافسون ؟ فاذا كان هناك من امتيازات ، فانما يبغونها لانفسهم

وثالثها ، اني ممثل حزب النهضة العربية في مصر وقد جئت سائحاً في البلاد أبث هذه الفكرة فاستثير العرب على الانكليز . والبرهان ... سبقنا في البرق الى عدن .

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك ؟ وهل يستغرب صدور الامر الى ادارة الشرطة بمراقبتنا انا ورفيقي ؟

ولّى الاسبوع وانا انتظر واحاول في الظنون التثبت والانصاف . وكنت اثناء ذلك طلبت ان ازور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج واراد القنصل مرافقتي فقيل لي : ينبغي ان اكتب الى سموه وان استأذن كذلك الانكليز . فكتبت الى سمو السلطان والى معاون الحاكم فجاءني الجواب من الاول مؤهلاً مرحباً ، وجاءني ورفيقي بوساطة القنصل اذن من الثاني مصحوب بكتاب يقول فيه ان الجولان خارج حدود لحج محظور وممنوع وان السفر بدون حرس لا يكون ، وان أمر الحرس « منوط بهذه الدائرة » اي دائرة الحاكم . اظنه خاف

ان نسافر من لحج بدون اذن منه ونستغني كذلك عن الحرس . على اننا والحق يقال بتنا والخطر الاكيد احب الينا من الترويع والقيود .

دفع القنصل الكتاب اليّ وحذرني من اولئـــك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية : اكثرهم يزورون المايجر ريلي بعد ان يزوروك . ثم قال : ويظهر ان اعتراض اصحابنا على رفيقك اشد من اعتراضهم عليك . فأكدت له ان رفيقي صديق قديم وان لا صفة له رسمية في هذه السياحة ، واني ارفض السفر اذا صدر الاذن لي وحدي .

بعد ثلاثة اشهر اي بعد رجوعي من صنعاء عرفت السبب في ابطاء الجنرال الحاكم . فقد اضطره امرنا الى مراجعات كثيرة طويلة بعيدة اتصل بعضها بوزارة المستعمرات بلندن ، وبوزارة الخارجية الاميركية بوشنطن .

عندما رأت الوكالة البريطانية ان لا بد من الاذن اتخذت خطة اخرى فسعت بوساطة اصحابها ، ومنهم اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية ، ان تقنعني بان السفر الى صنعاء من الحديدة اسهل طريقاً واقل خطراً . وقد ارادت بذلك ان ازور اولاً صديق الانكليز السيد الادريسي فارى في تهامة ما قد يغنيني عن زيارة خصمهم الامام فرفضت بتاتاً وكتبت الى معاون الحاكم ، جواباً على ما جاءني في كتابه الى القنصل ، اسأله ان يتفضل فيرفقنا بالحرس اللازم الى حدودهم اي الحدود التي تنتهي عندها حمايتهم . فجاءني منه جواب يقول فيه ، قد كتبت الى سلطان لحج بخصوص طلبكم وسأعلمكم بما يجد .

اقف عند هذا الحد في القصة لارجع الى مصدر آخر من مصادرها الغريبة . بعد ان زرت الوكالة البريطانية رحت اقصد وكالة اخرى سياسية . يممت في فم البركان ، في عدن القديمة ، ومعي رفيقي قسطنطين ،

بيت القاضي عبدالله العرشي وكيل الامام يحيى وسفيره الى الانكليز في عدن . فلما وصلنا الى دار السعادة اليمانية بادر الى استقبالنا عندالباب رجل صغير نحيل في قميص من القطن قصيرة ، تحتها قميص اخرى من الصوف زرقاء وفي رجله الخف ، ، وعلى رأسه ، وقد نزع العمامة ، طاقية بيضاء . هو القاضي عبدالله سفير الحضرة الامامية .

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية وكان الى جانب مسند القاضي عـــدد من الجرائد المصرية والسورية وفيها جريدة نيويوركية اشار اليها فضيلته قائلاً : نعم الغيرة غيرة ابناء العرب في اميركا على الوطن واللغـــة . ولكنني اقف حائراً في مطالعتي هذه الجريدة عنـد الفاظ وتعابير ليست من العربية بشيء . أفلا يقرأون النحو واللغة على اساتذة من العرب هناك ؟ . . . اما هـذه واشار الى مجلة مصرية ، فاسلوبها « ناهي » (جميل) . . . ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف ان يوم وصلتنا برقيتكم من بورت سودان وصلت هـذه المجلة وفيهـا مقال عنكم ، طالعناه والاعجاب بكم يسابق الشوق اليكم . فشكرنا الله الذي حقق املنـا باللقاء . . . ومولانا الامام هو عالم كبير وشاعر مجيد . وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . . . يوم وصلتنا برقيتكم يا حضرة الكامل اشعرنا بالسلك (تلغراف) حضرة الامام . ومتى جاء الجواب نسارع اليكم به . نحن في خدمتكم . وهذا قليل تجاه من وقف نفسه على خدمة العرب . . .

وفي اليوم التالي جاء فضيلته ، لابساً ثيـــابه الرسمية ، راكباً السيارة ، يزورني في الفندق . وكان في معيته كاتب سره واثنان من العبيد . دخل احدهما عليّ يقول : مولانا القاضي . فلبست عقالي

وخففت الى استقباله . ولولا العبد المبشر بقدومه لما عرفته لاول وهلة اين القميص والطاقية والخف من هذه المطارف الفخمة التي جاء يرفل بها . وهذا البرد اليماني المخطط بالاصفر والاحمر وقد طرحه على كتفه كأنه رداء روماني . وهذه العمامة العامرة الباهرة الالوان ، والسيف يحمله بيده ، والجنبية في زناره . هوذا حقاً سفير الحضرة الامامية دام نصرها .

والغريب ان القاضي كان في تلك الزيارة رسمياً في حديثه كما كان في ثيابه . فما انعش لي املاً ، ولا قال انه زار كذلك صباح ذاك اليوم الوكالة البريطانية . فلا غرو اذا فتحت اذني لرواة الاخبار الذين قالوا انه راح يستشير الحاكم في امري ، وانه لا يقدم على عمل لا يُستحسن في دار الوكالة ، وانه يقبض منهم ، لا من الامام ، المشاهرة . وقال بعضهم — بئس المفسدون — انه يقبض من الاثنين ، وانهم ، اي الانكليز اذا شاؤوا ان يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراماً لقنصل اميركا ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبدالله بان يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوفة بالاخطار ، فلا يستطيع ان يرفقني بالحرس اللازم ، وغيرها من الاقاويل . لله منك يا عدن ما اكثر الدسائس فيك والجواسيس .

جاءني بعد ايام كتاب من فضيلة القاضي « مجدداً للوعد مؤكداً للوداد » يبشرني فيه بوصول برقية من حضرة الامام مجيباً بالايجاب . ثم قال : فاي وقت تريدون ان تسافروا عرفوني فأرسل معكم احد خاصتي الى امير الجيش في ماويه[1] واعطيكم كتاباً اليه فيكرم وفادتكم ويرفقكم بمن يقوم بخدمتكم وحراستكم الى السدة الشريفة . انتم منا

(١) هي عند حدود اليمن الجنوبية وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلاً من عدن .

وعلينا واجب الحب والاكرام .

وصلني هذا الكتاب وانا في لحج ضيف سمو السلطان عبد الكريم فضل انتظر الفرج من الوكالة البريطانية . وكنا، على جميل ضيافة سموه وحفاوته بنا ، في حالة تعددت همومها . فقد مرض اولاد الرفيق قسطنطين بالحمى ومرضت انا بـ « القال والقيل » وكان داء الجدري متفشياً في البلد فخفت ان يكون قد اصيب رفيقي به . واطلعني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم : لا تأذنوا لفلان وفلان ان يتجاوزوا الحدود قبل ان يجيئهم الاذن منا . فاذا تمثل القارىء تلك الحال ، وقد بقينا اسراء في القصر بلحج ، يدرك شيئاً من سروري بكتاب القاضي عبدالله العرشي .

اسرعت باعلام القنصل فراح الى دار الوكالة يسألهم البت في الامر . ومرت خمسة ايام حسبتها خمس سنين وانا اجتهد ان اكون محسناً بالانكليز الظن . ولكن سئمت التسويف والمماطلة، ونفرت من الاثرة في امر اربعة اخماسه بيد سواهم حقاً وعملاً . ولو كان كله موكولاً اليهم لما كنت ألوم . فها ان صاحب البلاد يرحب بنا ووكيله في عدن يعدنا بما يلزم من الخدم والحرس في الطريق من ماويه الى صنعاء . والسلطان عبد الكريم ، رغم رسائل الوكالة ، يرفقنا ساعة يشاء بحرس الى حدوده. وانا ورفيقي، وحياتنا على كفنا، مكتفيان بهذه الضمانة .

— واذا مت يا مولاي (كان السلطان عبد الكريم يحاول تسكين خاطري) اموت والله في حبكم ، في حب العرب .

فضحك سموه وأمر لي بمداعة [1] وأمر كاتب سره ان يكتب الى

---

(١) تدعى النارجيلة في اليمن مداعة واظنها تحريف مدعاة لفظاً ومعنى . ففي القاموس المدعاة تفيد الدعاء الى الطعام وفي اليمن المداعة هي الدعاء الى الانس والسرور.

الحاكم في عدن يقول انه مستعد ان يرفقنا يوم نشاء بالحرس الى ماويه. فجاءني بعد يومين الكتاب التالي :

دار الوكالة . عدن ، في ٥ نيسان ١٩٢٢

الى المستر امين الريحاني

ايها السيد العزيز :

قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله ان يرفقكم انت وقسطنطين يني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل . ولكنه رغب اليّ ان اعلمكم بان البلاد في اضطراب ، وان السفر فيها خطراً على المسيحيين ، وانه وان كان قد سأل السلطان ان يرفقكم بالحرس الى الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوماً لديكم بان الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود المقاطعات المحمية .

لكم باخلاص

ب.م . رَيلي

المعاون الاول للحاكم بعدن

ذكرني هذا الكتاب بالكلمة الاولى التي قالها القنصل لي: قد يُقطع رأسك ولا احد يسأل عنك .. وكنت قد تركت عنده من امتعتي ما لا احتاجه في السفر الى اليمن ، واعطيته عنوانين ، في بيروت وفي نيويورك ، لينعيني في الاقل الى اهلي .

لست ادري وانا اعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب فيّ على ذلك الترويع اذا لم يكن ثباتي على احد امرين وهما ثقتي التامة باخواني

تابع صفحة ٨٦

وقد قال الشاعر فيها : مداعتي انيستي جليستي في وحدتي
تقول في كركرها بالله خذني باللتي

العرب وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة الدراسية. نعم قد كنت مزوداً بكتب التوصية من الملك حسين. وقد رأى القارىء في ما تقدم ما له من المنزلة عند الانكليز الذين حاولوا ان يمنعوا صديقي عن السفر لانه في خدمة جلالته. واما اولياء الامر من رجال الامام يحيى فسيرى القارىء ما لملك الحجاز عندهم من المنزلة.

اما الخطر وان جسّمه الانكليز فقد كان والحق يقال في حيز اليقين وخصوصاً في بلاد الحواشب، احدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز، الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي. وكانت عساكر الامام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية قد وصلت الى الحواشب ونكلت بهم، فارسل الانكليز على اليمانيين طائرتين رمتهم بالقنابل فتفرقوا وعادوا خاسرين لذلك كان العداء لا يزال متمكناً بين الامام والحواشب. ولذلك اطلقوا الرصاص على رجال الوفد اليماني عندما مروا بارضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز الى صنعاء. فماذا عسى ان يكون حظنا منهم ونحن قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الامامية؟

قيل لنا اننا اذا اجتزنا سالمين المُسَيمير، عاصمة السلطنة الحوشبية، نكون قد اجتزنا منطقة الخطر الاكبر في طريقنا. ولكن كلمة قالها القاضي عبدالله العرشي بصفته الرسمية – اذا لم يكن الامن موجوداً فنحن نوجده من اجلكم – وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل. اما الكلمة التي كتبها الى حضرة الامام وقد اذن لنا بنسخها فاننا ندونها في هذا السفر لغرضين، فيطلع القارىء اولاً على اسلوب المراسلة في اليمن اليوم ثم على مثال من كرم الاخلاق وحسن الظن يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالعه في مجلة عربية قال عافاه الله:

الامام يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

أمد الله مدة مولانا ، ومالك امرنا امير المؤمنين ، والحجة على الخلق اجمعين ، المتوكل على الله رب العالمين ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد في كل وقت وحين .

وبعد فصدورها للسلام ، مقبّلة بواطن الاكف والاقدام ، وهي لكم صحبة السيد الماجد ... امين الريحاني الذي فيه سبق الاشعار من المملوك اليكم بوصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة للمزاورة والمعرفة وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة . وقد وجدته على جانب عظيم من الحب والمودة للعرب ، ومن اللطف ... وعرفت ان لا مانع من توجهه الى حضرتكم وكتبت في التوصية به وتسهيل سفره وحسن وفادته الى امير الجيش في ماويه ، حماها الله . وسيتضح لكم حسن نيته وما هو عليه من المحبة والمودة للامة العربية كافة عند المواجهة وربما تستفيدون منه ومن نصائحه ومعرفته بالاحوال ما يكون فيه نفع الوطن وعمرانه . وليس لمن مثلي ان يشير الى من مثلكم فقد نوّركم الله بمعرفة كل شخص فتعطونه حقه وفوق حقه . وفي هذا كفاية . والله تعالى يصلح بكم جميع الامور والسلام عليكم .

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠ — من المملوك

عبدالله العرشي

قبل ان اختم هذا الفصل المؤلم المفكه معاً ينبغي ان اسجل على اولياء الامر فعلة قد يفيدهم نشر خبرها . عندما صدر الاذن بسفرنا استخدمت الوكالة البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتجسس

اخبارنا ، ويدون احاديثنا كلها واعطته الوكالة كتاباً مختوماً ليفضه بعد ان يخرج من الحج ويعمل بموجبه .

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة . بل انه فض الكتاب في السوق بعدن واطلع بعض التجار على ما احتواه . سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من اخبار الجاسوسية ، وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها .

الامام يحيى

في الطريق الى صنعاء

حدود لحج – الحواشب – اجسام العرب – وادي دبن – جبل ورره – حديث الولد الجندي – الخندق – ابن السلطان يلاقينا مرحباً – القصر في المسيمير – العشاء – السلطان علي بن مانع – اعداؤه واحزانه – اخلاصه للانكليز – راتبه الشهري – « عند الانكليز مال وحكمة » – صباح غير مبارك – رمي الفخار على رجالنا وهم يحملون – « هم يطردوننا . عجلوا بالرحيل » – اطلاق البنادق والفطور – السلطانة تكرم الضيف – ماوية – الزيود – جيش الامام النظامي – السيد علي بن الوزير امير الجيش – مجلس القات – « هل انت حسني او حسني » – وجاءنا الفرج في بيت من الشعر – الملك حسين واولاده .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدُكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامة انكليزية من الهنود وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضي عبدالله العرشي الى امير الجيش ، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا .

وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي ابن مانع ، جاؤوا بامر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم . والحوشبي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب . ليس في العالم جندي اخف منه حملاً ، وأشد منه بأساً . ولا اظن ان في جنود الامم المتمدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليمن الاسفل . هاك الحوشبي مثلاً وجلده الاسود او الاسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول ، وعضلاته الشديدة

المفتولة تتحرك كالاجزاء الدقيقة في آلة كهربائية ، وقامته المتناسقة الاعضاء تُستر بالعري فيكتفي بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بهـا عورته — هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك اذ يثب صاحبه، والبندقية على كتفه والامان في قلبه ، كالغزال الشارد امامك .

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو ينظر اليّ من حين الى حين كأنه يبغي الحديث . سرنا في وادي دُبّن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيسان تشوي الضب . و كنا بدأنا في التصعيد ، فتراءى لنا خيال اسحم على الافق البعيد، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلًا : هذا وَرْوَه — جبل وروه — تراه من عدن وستراه غداً من ماويه . لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا في عدن بالجبال . ولكني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . رافقنا وروه يوماً واحداً وغاب عن الابصار و كذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على فراقه . كان يحدثني وهو ينقل البندق لثقله من كتف الى كتف ، ويمشي على بؤس حاله سامد الرأس .

-- العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بايجاب .

— وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى ، فما سرّه الخبر ، فقال: السلطان رجل طيب يا امير ، ما فيه شر .

سألته : وهل تحب الاتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينيه ان نعم ثم قال : علي سعيد باشا[1] رجل طيب . كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلط[2] كثيرة . اما الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلط . انظر الى ذاك الجبل . وراءه الصُبَيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينـا نحن الحواشب

(١) علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن اثناء الحرب .
(٢) الظلط ، النقود الذهبية والفضية .

المحافظين على الامن . الحوشبي فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال : سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة يا حضرة الامير فهم يحاربوننا لانهم لا يحبون الامن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد الامن للعبـــاد ، وحضرة الامير — العفو — لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت أمر الامير . هل انتم تحكمون في بلادكم ؟

قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم .

— ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

— يحكمني الآن الانكليز . هل تحب الانكليز ؟

— يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر .

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

— اي والله نحبه ، علي بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من هو الحوشبي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا في الوادي وادي دُبن والجبال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى الُخندُق وهي قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سَمْسَرة[1] للقوافل والمسافرين فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وارسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام الى سمو السلطان علي وينبئه بقدومنا .

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين الُخنــدُق والمسَيمير فرقة اخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكباً

(١) الخان في اليمن يدعى سمسرة والمقهى مقهاية .

جواداً رائعاً . جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في الوادي اصوات البنادق ترحيباً اطلقوا ثلاث طلقات فاجبناهم بمثلهـــا ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله الحافية في الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الالوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد اثبت منها .

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء : ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبيه الحقول المزروعة وهي تتموج حول اكواخ من القش . ان الجمال الذي يجلبب المكان لينبيء بالسلم القروي ولكنه مفقود فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول سيجيب السلطان على سؤالنا . هذه جنود تطلق البنادق ثانية ولاءً لا عداءً تأهيلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل فجلسنا في حلقة على الارض ننطح بايدينا الزاد . وكأن السلطان وهو ينظر الينا ، أُعجب بسفي البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا . . .

كان السلطان علي نحيلاً كالخيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصرون حياتي هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكني اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد[1] اما الاربعة فالواحد

---

(١) يشير الى الرهائن التي يأخذها الامام يحيى من عماله وسيجيء ذكرها

منهم فوق [١] يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكنون لا نعتدي على احد . والآخر تحت [٢] يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزانة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك [٣] لا يخاف الله . والرابع [٤] عدونا اليوم، صديقنا غداً لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا ان نحاربهم كلهم . واننا والله نحاربهم يا امين ، ونحاربهم حتى نفنيهم او يفنونا . . لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيدياً واحداً على كل جمل ، والامام يأخذ مجيديين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي اليّ ويده على لحيته ، وثلاث اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمئة روبية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روبية ، احسبها . وعلينا ان نؤمن للقوافل الطرق ، وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتتركهم وتواليه ؟

فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسأبقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

ان الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه خصمهم كذلك في المذهب . هو زيدي شيعي ، وهم سنيون .

---

(١) اي امام صنعاء الامام يحيى (٢) اي عرب الصبيحة (٣) اي عرب الضالع جيران الحواشب شرقاً (٤) اي سلطان لحج .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيـــام مثلنا ليودعنا ثانية . وفهمنا منه انه قبل بذلك الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينا كان المكارون والخدم يحمّلون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناء من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء آخر تبعه – رأيناه يرمى من النافذة ولم نرَ الرامي – فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين أقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجال يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا – أقول وقلبي ولا أتهم رفيقي – يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي عندما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤوا بالفطور ! اي بالله . كيف نسافر قبل ان نفطر ? وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ?

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في

خدرها رأتنا من على السطح في اهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من أجلنا . فارادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا صوتها أو ترينا من النافـذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

أكثر الله ايتها السلطانة من فخّارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . وكيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربـين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل .

تروّعين ايتها الحوشبية الالمعيـة ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بـــلاد الزيود ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسي الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان الزيود [1] شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي اجتزناه . فشنف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فاستأنسنا به ايما استئناس . كأننا عند حدود الامام عدنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهـو جندي بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم أمير الجيش . وكانت فاتحة الالطاف . فلما دنونا من القصر سمعنـــا الموسيقى

---

(١) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب وهم وان قالوا في المفرد زيدي لا يقولون في الجمع زيديون بل زيود كأنهم يريدون بذلك ان زيداً متجسد في كل واحد منهم وان امتهم امة الزيود .

العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي : فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور ، اللابسين القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيات ، وعندما وصلنا إلى الباب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ،أوقفنا الحارس هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول .

دخلنا وكانت بداءة الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ،وعلى كل دكة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في اجسامهم (١) كنت وانا اتلمس طريقاً امثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وما هي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امام باب صغير ، ثم دخلنا فـــاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعـــة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفـاً

(١) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تنشف ليسيل الصباغ على اجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا ان عساكر الامـــام وكثيرين من اهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بـل حداداً على الحسين . على ان الوهم في هذه العادة اصبح من التقليد كما يظهر لان السادة وهم اولى بالحداد لا ينيلون ثيابهم .

ملزوزة ، و كلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون [1] وفي

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز ولكن القات غير الشاي . القات تخدرهم وتبغهم ومسكرهم وهم يدمنونه ادمان الاوروبيين الخمر.
قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الاصحاب اوقاتا يصفو به العيش احيانـاً واوقاتـا
يا عاذلي عن حصول القات مت كمداً لا نترك القات احياء وامواتـا

وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براك معراج قلبي حين يصعده جبريل روحي الى اعلى سماواتي

ان في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الاولى اي الكيف ، وشيئاً من خاصة الافيون المخدرة ، وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر . وبكلمة اخرى هـو يطرب النفس . ويخدر الحواس ، ويشحذ الذهن . بل يبعث ، على اعتقاد اهل اليمن ، في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل . قد تحققت بنفسي انه يؤرق ، ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعقوصة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء كثيراً . ولكني لم احس بشيء من الكيف اي خفة النفس . ولم ينتبه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً، ويفضلونه على خبز يومهم .

جميع الناس في اليمن ، من رجال ونساء واولاد ومن اغنياء وفقراء ، يأكلون القات — يخزنون . والتخزين هو ان تمضغ الاوراق مضغاً بطيئاً طويلاً كما يمضغ بعض الاميركيين التبغ ، ويحفظونها تخزينة « اي كتلة » في الفم يجترونها . ولكنهم لا يبصقون مثل الاميركيين الا عندما تذوب التخزينة فيبصقون اذ ذاك في اناء من النحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها . ان مجلس القات لا يتم بغير اباريق المـاء وكؤوس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس . امـا الاغرب من ذلك اهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكثرون من قهوة قشر البن يغلونـه كالشاي ، فتظنه البابونج لطعمه بدون سكر وهو على مـا اظن مفيد لانه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من اضراره . لا ريب في ان القات مضر بالصحة والنسل . فهو يفقد المرء شهوة الاكل،

الزاوية عند منضدة صغيرة ،الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليـه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد مـلوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين،وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينـا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر « وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل .

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه يعرفه اما خطأً واما تلطفاً ، الى السيد (١) امين الريحاني ، فظنني حضرته من اشراف المسلمين واراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب ،

ويفسد اسباب الهضم ، ويحدث مثل الافيون شللاً في مجاري البول ، ولا يقوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي(Catha edulis) وهو نبت شبيه بالبطن الا ان شجرته صغيرة، وورقه مثل ورق العفص ، يزرعه أهل اليمن في البساتين . مثل اشجار الثمار ويبيعونه باسعار غالية اذا كان من النوع الجيد اي الرخص الصغير الاوراق . هم يقطفونـــه اغصاناً ويرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الاخضر ومربوطة بقشر الشجر،ثم يجيئون بالرزم الى المجالس ، مجالس القات ، فيفكونهـــا ويرمون بالقشر والحشيش والقضبان على الارض. ثم يبدأون بالتخزين بعد ان يقفلوا الشبابيك ويشعلوا المداعات (النراجيل) فتمسي الغرفة في تلك الساعة كمقهى الحشاشين في دخانها وكربونهـا ، وكالاصطبل في فرشها .

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون ،البدو منهم والحضر .

فسألني قائلاً : هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ،فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلها سود تنذر بالبلاء. أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احدّ ، ولا نزال والحمدالله في بداءة الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذٍ حقيقة دينك — اصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن امام الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او دروينيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناءذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي - من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً ولكنه سبحانه ، بعد ان غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح عليّ فقلت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل في صميم فؤادي [1]

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة. وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه ، وتبادلنا واياه الثقة والولاء. فقال يعقب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين. يتقربون حباً بالمال او السيادة من الافرنج ويدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية . يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرمين ... الى ان قال : الايمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده ؟ في سبيل الله ؟ استغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز. ثم قلت وانا اتوق الى الهواء : قد يريد الامير ان يصلي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب سره ورجاله ان يصحبونا الى المضيف ويعتنوا بامرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء . في مجالس القات تقل الترهات .

---

(١) كل مرة اذكر هذه الحادثة اشكر صديقي الشيخ فؤاد الخطيب صاحب هذا البيت الذي فرج عني في موقف حرج جداً .

اليمن الاخضر القديم

الطيارات — الفاتحة — الامام — وادي الذهب - وادي نخلان — نقيل - المحرس — نجد الاحمر — رياحين لبنان — جبل بعدان — ساحة الاستقبال — موكب الزيود — اسماعيل باسلامه عامل اب — مدينة قديمة عالية — وادي المرفد — شجر البن— نقيل سماره — ثمانية الاف قدم فوق البحر — قاع الحقل — يريم — الرهائن — ذمار — امير الجيش ابن الوزير الثاني — خطبته المدهشة — «لا فسق في البلاد ولا زنى» — والزانية — حديث الجنود وشكواهم - رفيقنا السيد محمد—الغرض من زيارتي الامام — البيوت في اليمن وعسير—الوحشية والاستقلال .

مشينا من قصر الامير الى قصر الضيافة ، بل الى قلعة اخرى عالية مظلمة ، وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قلاع وحصون ، فأنزلنا في الطابق الاعلى ، في غرفة سقفها واطٍ ونوافذها ضيقة صغيرة ضاق منها صدري ، فهربت الى السطح ونصبت سريري هناك .

وكان كاتب سر الامير الاديب التركي ، الذي ادرك بعض ما فيّ من الانقباض والاضطراب ،يحاول تسكين خاطري وتسليتي بما قصه علينا من قصص الحيوانات المفترسة في اليمن الاسفل . فقلت له ، وانا احس ان الحيوان المسجون فيّ وفي تلك القلعة يشتهي الفلاة : اننا نروم الوصول الى الحضرة الشريفة باسرع ما يمكن ونلتمس من امير الجيش ، وان كان ذلك مخلاً باداب الضيافة ، ان يسهل امرنا فنسافر في الغد . فوعدنا خيراً .

ثم جاءنابعض وجهاء البلد زائرين وفيهم احد اقارب الامير يحمل

الينا هدية من القات . فاستقبلهم الرفيق قسطنطين وحدثهم وتناقش واياهم في موضوع الطائرات . نقرأ عليها الفاتحة فتسقط كالطير المذبوح الى الارض . فأفحم القسطنطين ، وبادر الى القات يكتشف فيه اليقين . اما انا فاعتصمت بالسطح ابغي العزلة والهواء ، فصحبني ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات لبنان ، فشكا اليّ اموراً وأسرّ أخرى : لا شك ان حضرة الامام رجل كبير قدير ، ولكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة ، ولا ينصف السنيين الشوافع في بلاده ، ولا يحسن السياسة مع الانكليز ، فقد استنزل على جنوده هول طائراتهم ، ولا يفتح المدارس في البلاد ، ولا يعزل الظالمين من عماله مثل عامل هذا البلد ، ولا يجود بما رزقه الله وهو الغني الاكبر في اليمن كله .

نمت تلك الليلة وانا افكر بالسلاح الجديد اي الفاتحة ضد الطائرات وبما عدّده الشافعي من سيئات حكم الامام . فحلمت حلماً غريباً عجيباً ما ذكرت منه عندما استفقت غير اني كنت والامام يحيى نطير في طائرة صنعت في انكلترا ، وكُتبت على جناحيها فاتحة القران ، ونقشت على الواحها آياته البينات . فبأي سلاح يا ابن الوزير تحارب طائرة المؤمنين؟

سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال بدل الطائرات ، مصحوبين بحرس من جنود الامير المنيّلة اثوابهم ، المدهونة بالسمن شعورهم . فتهنا في ضوء القمر ساعة عادت فيها اليّ الاحلام ، وانا على ظهر الدابة شطران ، شطر نائم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فاظنه في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله يا مقدم ، فيخيل اليّ اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها اشباح تتكلم العربية .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا الى قرية تدعى الشيخ صلاح ، فنزلنا هناك والتعب والجوع فينا يساوران النوم. فنام رفقائي في كن صغير لا يليق في بلاد الله بغير المواشي – ما رأيت اناساً يخشون البرد مثل اهل اليمن – ونمت انا في الفـــلاة على سطح ذاك الكن ، ساعتين لا غير ثم نهضنا قبل الطيور نستأنف السير ، والتعب لا يزال حليف الجوع علينا .

فطرنا عند شروق الشمس وسرنا في ارض خضراء تفوح من ادغالها روائح النبات الطيبة ، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم ؟ فهو من اجمل الاودية واخصبها في اليمن الاسفل ، تجري فيه المياه ، ويزرع ثلاثاً في السنة الواحدة . رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان (١) ثم اجتزنا وادي نحلان وفيه رأينا لاول مرة سلك التلغراف الذي يصل تعز بصنعاء ، وصعدنا من الوادي في نقيل (٢) المحرس الى رأسه فاشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول المزروعة ، ومن القمم الخضر والجرد دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » وهي بقعة من الارض الحمراء صخورها تعلو اربعة الاف قدم عن البحر ، فجف الهواء ، وبرد الماء ، وتعددت حولنـــا النباتات والرياحين التي ذكرني بعضها بلبنان فهوذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادغال شجيرات من البطم والغار .

عندما وصلنا الى أعلى درجات نقيل المحرس تراءى لنـــا منها جبل بُعدان ووراءه جبل حبْ أعلى وأبعد منه ، وانكشف امامنا مشهد آخر من السهول والهضاب ، في وسطها ، عند منحدرٍ من جبل بُعدان ،

(١) من مزروعات اليمن الحنطة والشعير والذرة والدخان والعدس والبطاطا والورس والحلبة والقات. (٢) النقيل في اصطلاحهم هو العقبة او الطريق السالكة في الجبال العالية.

مدينة اب القديمة . التي تتساوى في علوها ووادي نخلان ، لاننا بدأنا في النزول اليها فوصلنا بعد ساعتين الى ساحة تدعى عند اهل المدينة ساحة الاستقبال ، هناك يترجل المسافر اذا كان معروفاً وينتظر قدوم المرحبين .

ترجلنا طائعين ، وكان قد تقدمنا احد العساكر ينبىء العسامل بقدومنا ، فبتنا ننتظر «استقبالاً يليق بنا» كما قال فيقنا رسول القاضي عبدالله العرشي . وما عتمت ان تحركت الجموع وخرجت من المدينة ، فشاهدنا عسكراً زاحفاً الينا وسمعنا اصوات الابواق والطبول جاء العامل اسماعيل باسلامه بخيله ورجاله ، ، بجنده وجمعه ، وبنوبته واهازيجه ، يستقبلنا ويرحب بنا باسم الامام ، وبعد السلام ركبنا وانخرطنا انا ورفيقي في ذاك الجمع المنيّل المهلل نحسب انفسنا في حلم من الاحلام ، او في موكب من مواكب الجان ، والجنود مسترسلو الشعور ، مكحلو العيون ، المزينة عمائمهم بالورود والريحان ، حولنا وامامنا ينشدون بصوت جبلي رهيب .

يا من يخالف أمر مولانا ويعصيه لا بـــد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه والطير يرسي في سماه

دخلنا المدينة دخول الفاتحين ونزلنا على الرحب والسعة في بيت من بيوت العامل اسماعيل، المشهور في بلاد اليمن، اعلاها واسفلها، بكرمه وفضله وعدله ، فتمتعنا ، بعد ايام من المشقة والشقاء ، بنواعم العيش وطيباته ومثلما اسرعنا من ماويه ابطأنا في اب ، بلا حياء في الحالين .

فجاءنا ونحن هناك برقية من الامير علي بن الوزير يقول فيها انه محزون لفراقنا فأخجلنا وعاد بنا الى ما كدنا ننساه من التأدب في الغربة .

من حسنات اسماعيل باسلامه انه لا يخطب في ضيوفه ، ولا يفاخر

بدينه ، ولا يهدد بلاد الكفار بالدمار . هو رجل هادىء الخاطر ، وديع النفس، غني كريم، يحبه جميع من يشتغل في ارضه كما يحبه جميع من في حكمه . وهو يخلص للامام اخلاصاً لا يشك الامام بـــه ولا يخشى من تقلبه . انه العامل الوحيد على ما علمت الذي لا يأخذ الامام رهينة [1] منه . وقد يكون السبب في تساهله ورحابة صدره انه سني حضرمي . وقد تكون هذه الخلال من فطرته وصفاء ارومته . على ان المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تتغذى خصوصاً في الشرق بالمذاهب والاديان . ان اول رجل لمس قلبه قلبنا في اليمن هوشافعي، واول رجل اضافنا ولم يسب الكفار هو شافعي . على اني اظن ان اسماعيل باسلامه ، ولو كان من عباد الاشجار ، يظل في فضائله الجمة قريباً من الله والناس .

جاءنا صباح اليوم التالي يسلم علينا وبيده طاقة من وردنيسان قدمها لي . وزرت واياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار انواعهـا ، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب ، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة ، فرأينا الزيتون، والموز، والعَصب، والعنب، والتفاح ، والرمان زاهية

---

(١) سمعت بالرهائن في لحج فاستغربتها واستنكرتها ، وكدت انكر صحة ما سمعت . الا ان اغرب الامور هي اقربها في بعض الاحايين الى الحقيقة . فالامـــام يحيى يتقاضى كل موظف من موظفي حكومته الكبار ، الملكيين والعسكريين ، رهينة واحدة ، ابناً او اخاً او نسيباً عزيزاً ، يبقيه في حوزته كفالة الاخـــلاص والوفاء في التابعية . وهؤلاء الرهائن – عند الامام على ما قيل اربعة الاف منهم – يقيمون في المدن المختلفة كل بعيـــد عن اهله ومسقط رأسه . فتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض وتمنح الاخرين ، بكفالة احد وجهاء المدينة ، حرية الجولان فيهـــا .

كلها زاهرة . ان هذه الاشجار تنمو كلها في اليمن الاسفل لان تلك البقعة من الارض في حين انها تعلو خمسة الاف قدم عن البحر فانها لا تبعد اكثر من عشر درجات عن خط الاستواء .

اما مدينة إب" فمسوّرة ، وهي وسخة ومزدحمة ، تروق الناظر اليها من الخارج فقط . بيوتها من الحجر واكثرها ثلاث طبقات ، تُستخدم الاولى للمواشي والدواب ، والثانية للخدم ، والثالثة لاهل البيت . ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن ، وليس فيها احد من الاطباء ، ولا نقطة ولا حبة من الدواء ويكثر فيها الجدري والحمى واكل القات . اننا كلما صعّدنا في اليمن نرى « التخزين » في ازدياد وصحة النسل في نقص ظاهر ولا سيما في الاولاد . فان وفيات الاطفال في اليمن كثيرة ، اذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً اكثر من سبعة او عشرة اولاد . واظهر ما فيهم النحول . والشحوب ، وضعف الاعصاب .

قلت ان إب جميلة من بعيد ، فالقادم اليها من ماويه او تعز يراها في السهل وحوله الربى كأنها حفنة من اللؤلؤ على بساط اخضر ، مفروش في بحيرة جفت مياهها . والقادم اليها من يَرْيم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مَرْج او كبرج في جزيرة . ولها ساحة وداع كما لها ساحة استقبال . مشى معنا اليها اسماعيل باسلامه ومعيته ، وارفقنا الى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي . فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى ان يزداد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء .

مررنا في طريقنا الى يريم بوادي المرفيد الذي يفوق وادي الذهب جمالاً وخصباً ، وشاهدنا فيه لاول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه

وزهره الليمون وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب . وبساتين غضة من العنب والموز ، تجري في ظلالها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره . وبدأنا بعد الظهر نصعّد في نقيل ذاك الجبل ، وهو اعلى نقيل في اليمن فوصلنا الى وسطه عند الغروب ، وبتنا تلك الليلة في قرية تدعى المَنزِلُ .

ولما وصلنا الى رأس النقيل في اليوم التالي كانت الرياح شديدة ، والهواء ، على حمو الشمس ، بارداً ، فشعرت بالبرد لاول مرة في اليمن . ولا غرو فكنا قد علونا عن البحر ثمانية الاف قدم اي علو ظهر القضيب في لبنان . ومن تلك الذروة الهائلة ، المدهشة المنعشة ، رأينا منبسطاً امامنا وتحتنا قاع الحقل والى الجنوب منه ظفار [1] التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورها وحصونها . ان ذاك القاع في مزروعاته المتنوعة ، وبقاعه المحصودة ، لشبيه بطنافس خضر وصفر وبيض وسمر تملأ العين بهجة والنفس سروراً . نزلنا اليه وسرنا معجبين بانتقالنا السريع من منطقة باردة الى ما يدنو من خط الاستواء .

اما استقبالنا في يريم التي كانت تدعى مَرْيَه في عهد حِمْير فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . فقد خرج لملاقاتنا اولاد المدرسة مع شيخهم الفقيه فاصطفوا الى جانب الطريق ، ينشدون ويهللون مرحبين . ما فهمت من النشيد غير كلمة نصر الله المسلمين ، رسول الخير الامين . ولكني علمت ان الاولاد هم من الرهائن عند الامام . انه لحكم عسكري قاس شديد ، بل حكم

(١) لا يزال في ظفار اثار حميرية رأينا من شكلها الحلى الذهبية والتماثيل الرخام عند احد التجار في عدن وكان فيها من قصور اليمن المشهورة كوكبان وبينون وسلحين .

اشتباه وارتياب . فلا عجب اذا اخلص العمال لرئيسهم الاكبر ولكل واحد ولده عنده او اخ او قريب عزيز .

سألنا صاحب سمسرة في الطريق : هل عندكم حليب . فقال : لا غنم عندنا ولا بقر ولا معزى . ولو كان عندنا فليس من يرعاها . شبابنا في عسكر الامام ، واولادنا هاربون من التجنيد ، والعمال اخذوا اغنامنا كلها زكاة وضرائب لبيت المال .

ولكننا عندما وصلنا الى ذمار قابلنا امير الجيش فيها ابن الوزير الثاني ، السيد عبدالله [1] ، صنو ابن عمه في ماويه ، سمعناه يقول : هذه بلادنا وهي بفضل حضرة الامام بلاد العدل والدين والصدق والوفاء الحكم الكامل العادل تراه عندنا في اليمن ،فلا خمر ولا فسق ولا زنى ، ولا قتل ولا سرقة ، ولا وباء ولا رشوة ولا اغتصاب . كل ذلك لاننا محافظون على ديننا ، عاملون بكتاب الله ، مجاهدون في سبيله تعالى . . . ثم قال: نحن نقول ونفعل ، وغيرنا يقولون ولا يفعلون ، او انهم يقولون الحق ويفعلون الباطل . العرب كذّابون ساقطون ، يفضلون مال الاجانب على الجهاد في سبيل الله . نحن حاربنا الاتراك مراراً ، وجاهدنا الكفار الخونة في تهامة ، وسنحارب كل من يحاول اختلاس فتر من ارضنا او هضم ذرة من حقوقنا . سنحارب حتى الموت . نحارب ، واذا غلبنا نتقهقر . نحارب ونرجع الى الشمال ، نحارب ونعتصم بالجبال ، نحارب ونلجأ الى الصحراء . واذا لم يبق لنا غير موطىء الاقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله ، واثقين برحمته ، وطيدي الامل بعونه . ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب ؟ اين فيصل اليوم ؟

(١) عبدالله بن الوزير هو الذي تزعم الانقلاب الذي اودى بالامام سنة ١٩٤٨ — الناشر .

قلنا : هو في العراق ، ملك العراق .

فقال : واي خير واي شرف في مُلك عربي زمامه بيد الانكليز ؟ لكان احسنَ فيصل لو ذهب الى ابن سعود ليصلح بينه وبين ابيه الحسين. الملك حسين ! ان قلامة ظفر الامام والله لخير منه . يا للعار ! ايفتح ابواب الكعبة للنصارى الكفار ؟

حاولنا اصلاح ظن الامير في ما أشيع عن الملك حسين . وانا اعلم انه لم يأذن للمسيحيين بالدخول الى مكة . فما هدأت تأكيداتنا من ثورة غضبه .

العرب كذابون ساقطون يحبون المال . وقد يصيرون بعدئذ ان شاء الله مثل اهل اليمن . هذا اذا اقتدى امراؤهم بمولانا الامام واخذوا من احكامه مثالاً لاحكامهم . فتطهر البلاد كلها من الفسق والفجور ، من الزنى والخمر ، من الرباء والرشوة كما تطهّر اليمن .

وكان الرفيق قسطنطين قد رمقني بنظرة فهمت معناها عندما ذكر الامير في مطلع حديثه الفسق والزنى . ثم عند ذكره ذلك ثانية همَّ رفيقي بالكلام فمنعته باشارة من يدي ، فلامني عندما خرجنا من المجلس لاني حلت دون جوابه . وما جوابه؟ اضحكني من الامير ما غاظ القسطنطين ذلك لاننا في احدى الليالي السابقة ، جاءت الامرأة التي طبخت لنا العشاء ، والنساء في اليمن خارج المدن الكبيرة سافرات ، تعرض نفسها علينا بثمن فسطان من الشيت . وقد قال لنا احد العساكر بعد ان خرجنا من ذمار : لولا رفيقكم السيد لكانت النساء تجيئكم من كل سمسرة (١) .

(١) ان بعض الافاضل في اليمن وخارجه ألحوا علي باللائمة لذكري هذا الحادث. فلم لم يلوموا لاني نقلت كلام ابن الوزير الامير عبدالله ؟ — لا فسق ولا زنى في اليمن ! أيبغون الحقائق التي تدغدغ تقواهم دون سواها؟ على الكاتب ان يصدق قراءه.

كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائماً لجميع الناس، فاسمع الشريف والبدوي، والجمّال والجندي، والتاجر والسياسي، فأدون احاديثهم دون رأي لي فيها اذ ذاك ابديه. واني اسألك ايها القارىء، وانا اشاركك الان في ما سمعت وشاهدت، ان ترجىء رأيك كذلك الى ان تسمع الحديث كله ان كان عن الامام يحيى او عن سواه. وها قد اسمعتك كلام ابناء الوزير وهم من كبار رجال الامام، وحديث احد الشوافع العقلاء وهم باطناً اعداءُ الامام، وحديث صاحب سمسرة وهو ممن يدفعون ضرائب الامام. واليك الآن بحديث من يحارب لتعزيز وتمديد حكم الامام.

كان في حرسنا جندي اسمه احمد، حارب على صغر سنه، في ثلاثة حروب مع الطليان في طرابلس الغرب، مع الانكليز في الهند، ومع الترك في اليمن. قال احمد: أُخذت خدعة من عدن. قيل لي ان في الغرب حرباً بين الاتراك والكفار فركبت الباخرة ونزلت في طرابلس وبعد ان صرت في عسكر الطليان عرفت انهم يحاربون الاتراك المسلمين. ولكنهم اعطوني مالاً واسمعوني الكلام اللطيف، وعاملوني معاملة حسنة، فحاربت واستغفرت الله، الطليان احسن من الاتراك، واحسن من الانكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام. اما الاتراك فلا يهمهم النظام، ولكنهم لا يدفعون مثل الطليان. والآن يا افندي — اقترب مني ليهمس كلمته همساً — لا مال، ولا نظام، ولا لطيف

الخبر في كل شيء. اما الحادث نفسه فهو عادي في اي بلد من بلاد النـاس ولولا خطبة الامير عبدالله لما كان له في الرحلة مكان ولكني آسف لاني دققت في التسجيل فذكرت اسم البلد والبيت (في الطبعة الاولى) وعرضت المرأة للاهانة. اني اعتذر اليك ايتها المجدلية اليانية واسأل الله لك الخير والسلامة في كل حال.

كلام . اما حضرة الامام فهو رجل عظيم ، رجل صالح عادل عزوم . ولكن عماله طماعون يشتهون دائماً الفلوس... قسمتنا خمسة ريالات في الشهر ـ عندما يدفعونها . ولكنهم يسيروننا في البلاد من طرف الى طرف وليس في قميصنا بغشة ـ اي قرش ـ واحد . والاهـــالي لا يحبوننا لانهم يدفعون ضرائب كثيرة ، ولا يطعموننا ولا يوآووننـــا الا اذا دفعنا . وماذا ندفع ؟ ما في هذه القميص شيء ـ نفضها ليريني انها فارغة ـ وثمنها يا افندي انا والله دفعته . ويجب ان ادفع ايضاً ثمن النيل لأقي جلدي من البرد. والقات ؟ من يدفع ثمن القات ؟ نحن في اليمن فقراء ، وحكم الامام يزيدنا فقراً .

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة وهو متزوج فسألته : اين زوجتك ؟ففرقع اصابعه وهو يشير اشارة يمنية لطيفة وقال : هي هناك وراء الجبل .وهو لم يزرها منذ سنة. « ولا اعود اليها والله حتى يصير في جيبي ظلط» فقال احد رفاقه : مسكينة تموت ولا تراك .

وقال آخر لحيته بيضاء ظننته يتجاوز الخمسين : لا والنبي ! لا ازال في الثلاثين . اما هذا الشيب فهو من هنا ـ واشار الى قلبه وسكت . ثم راحوا كلهم ، ويد الواحد في يد الآخر ، يعدون وينشدون :

يا الله اليوم فرّج وفك العسر
يا مفرج على النفس في ضياقها (١)
بدّل العسر بكل اليسر
وفتّح ابواب قطال (٢) غلاقها
كيف قوم محوّز (٣) وقوم اخر

(١) في ضيقها (٢) قد طال (٣) محاصر .

في المقايل [1] على شرب تنباكها .

لم ار عرباً يتكتمون في امورهم مثل عرب اليمن وخصوصاً الزيود . ولكنهم اذا سنحت الفرص ووثقوا من محدثهم يجهرون ، فيفصحون ويصدقون . والسيد والاعرابي واحد من هذا القبيل . ارفقنا امير الجيش في ذمار باحد السادة اكراماً او استعلاماً، لا فرق، فكان يركب بعيداً عن الجنود،ولا يقترب منهم الا امراً او ناهياً وظل في اليوم الاول بعيداً كذلك عني .فما كان بيننا من الكلام الا السلام .

ولكنه في اليوم الثاني سألني همساً ان اطلعه السر في حفظ الماء بارداً في قنينة ال « ترموس » التي كانت معي . فاخبرته ورسمت الشكل في الزجاج المزدوج الخالي من الهواء. فدهش وقال : الافرنج اصحاب عقول ـ عقول ذكية . وهم يستخدمونها دائماً في كل شيء . ونحن لا نستخدم عقولنا الا في الحروب .سأسافر يوماً ما ان شاء الله . سأخرج من اليمن متنكراً ... اهل اليمن يا امين يغارون جداً على دينهم ، ويظنون ان ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار . ولكني سأسافر ان شاء الله وان كفرت .

سألني السيد محمد ان اعطيه عنواني فكتبته في ورقة فأخذها وخبأها في طية من طيات عمامته البيضاء وقال ستبقى سراً بيننا . وعندما نصل الى صنعاء انت تنزل ضيفاً على حضرة الامام ،وانا اذهب الى بيتي ، فلا نتقابل بعد ذلك ، ولا لزوم .

وفي اليوم الثالث اقترب مني وانا اكتب فقال : ما الذي تكتبه في دفترك ؟فقلت ، وكنت خلال السفر قد سألته عن اسماء بعض النباتات والازهار : ما اعلمتني به . فقال:وما الفائدة من كتابة اسماء الازهار

---

(١) جمع مقيل .

والاشجار والحجار ؟ فقلت : قد تهم معرفتها من يجيء بعدي . فاقتنع ظاهراً ثم قال : هوذا اليوم الثالث وانا رفيقك ، أفتأذن بسؤال ؟ فقلت : نعم بعد ان تجيب سؤالي . هل انت مسافر الى صنعاء لشغل خاص بك اوبأمر من امير الجيش؟فاجاب: لي حاجة في صنعاء ولكنني لولاك ما جئتها اليوم . ارسلني الامير رفيقاً حباً واكراماً. وما قصدك يا امين من زيارتك اليمن ؟

— مشاهدة البلاد وتأليف كتاب فيها وفي اهلها .

— وهناك مقاصد اخرى .

— نعم ، اراكم حيث كان اجدادكم منذ الف سنة ، وسأقول هذا لحضرة الامام فعسى ان يسعى في ما يدفعكم الى الامام. فيفتح المدارس في البلاد ويمهد سبيل العلم والتعليم .

العلم ناهي [1] ولا ريب في ذلك . انا من رأيك،واقسم باللهوبهذه الشمس الغاربة اني صديقك . فقل لي هل يطمع الانكليز ببلادنا .

— لا اعلم . قد اكذب اذا قلت لا ، وقد اكذب اذا قلت نعم .

— الست رسول الانكليز الى الامام ؟

— لا ،حتى ولا رسول اي دولة من الدول .لا ناقة لي في السياسة ولا جمل. ولكنني اقول لك اني اخو العرب ، وصديق العرب، واشتهي ان اراهم جميعاً في ائتلاف بعضهم مع بعض . اشتهي ان ارى الامراء ساعين في سبيل الوحدة العربية وتعزيزها .

— ناهي ولكن كيف تتم الوحدة ؟ اعلم ان الامام رجل عظيم ، اعظم العرب اليوم ، وهو يطمح الى حكم اليمن كله باسره . ثم الى حكم البلاد العربية كلها باسرها .

---

(١) ناهي ، جميل

ـ قد يكون الامام رجلها وابن بحدتها . ليجتمع الامراء ويتفقوا على ذلك .

ـ ولكن كيف يجتمعون واين ، ومن يدعوهم ؟

ـ يا حضرة السيد ، قلت وانت الصادق ان عندي رسالة ابلغهـــا الامام . فلو اطلعتك انت على كل شيء فبماذا احتفظ للحضرة الشريفة ؟

ابتسم السيد محمد وقال كلام حكيم . ولكنني انا اطلعك على ما لا علم لك به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة . فلو سحت في عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلـم . اتعرف السبب؟ لا يزال أهل اليمن وعسير وحشيين ، لا يثق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوف ٌ دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير ـ وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه ـ هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، قد رأيت بعينك الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا ؟ ـ واخذ بيده فنجان القهوة ـ ولكنه لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي اقاتلك ، استل عليك هذه الجنبية ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . واذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب ، وعندما تنطفىء ، يتساءلون وما السبب في القتال بين فلان وفلان ؟ يقاتلون اولاً ثم يستعلمون . هذه طريقتنا في اليمن ، نحارب حتى اهلنا . فاذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب ؟

فقلت : وهل في اليمن اناس يشتهون رجوع الاتراك ؟

فاجاب : من يشتهي ذلك نذبحه .

ـ وهل في اليمن اناس من الباطنيين ؟

ـ كان منهم طائفة فافنيناهم بالسيف .

ـ أهذه هي طريقتكم في اليمن ؟

ـ نعم يا امين . يغار اهل اليمن على بلادهم كما يغارون على حريمهم . لا حق في البلاد لغير اهلها . ونأبى الشركة فيها كما نأباها في الحريم ، فنحارب ليسلم الشرف ، ونحارب ليسلم الوطن .

صنعاء اليمن

وعلان — حزيز — البن المطري — جبل لقم — صنعاء — جمال الاسماء وجمالها — جبل عشار — جبل آنس — معادن الفضة والطلق — نشيد الزامل — بير العزب — الدوشن — بيت من بيوت الشام — ازهار لبنان — طباخ متمدن — الحمام — السيد علي زباره — القاضي عبدالله العمري — الطواف في المدينة — الهندسة العربية في البناء — الاحياء درجات — اجرة البيوت — اسعار لوازم المعيشة — « وهم مع ذلك يشكون » — حصار صنعاء ووقعة شهاره — الحضرة الشريفة — المظلة المشهورة — البنود والطبول — قصة الجندي ورسول مصطفى كمال الى الامام .

في صباح اليوم الثاني عشر (١٨ نيسان سنة ١٩٢٢) بعد خروجنا من لحج وصلنا الى حزيز، المرحلة الاخيرة في رحلةٍ مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسنات الى مقامها في الذاكرة وفي الفؤاد . اني وانا اكتب الآن اتمتع بها واستأنس بترداد ذكرها . كأني في رحلة اخرى الى صنعاء ، لا مشقة فيها ولا عناء .

بتنا الليلة السابقة في وعلان، وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر ميلاً من صنعاء ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يُستغرب مثله في الدرجة الخامسة عشرة عرضاً ولكننا اصبحنا كذلك في علو يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر [1] هذا هو السبب في انتقالنا تلك الساعة

---

(١) هذه قياسات العلو في جبال اليمن بالاقدام الانكليزية .

١٠٠٠٥ جبل سماره	٩٥٠٠ جبل ذفار قباله	٦٧٥٠ مدينة اب
٠٩٠٢٠ يريم	٧٦٥٠ ذمار	٧٥٤٤ صنعاء
٠٩٠٠٠ بوعلن	٨٠٠٠ مناخه	٩٨٤٠ جبل شام

الى طقس اشبه بطقس الشمال . على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنحر بقرن صغير من قرونها الذهبية كل ريح تهب فتدميهـــا ، ثم تحييها ، وتوسل الحرارة فيها .

وصلنا الى حزيز وما هي الا بضعة بيوت وسمسرة ، ساعة الضحى فجلسنا هرباً من الشمس في فيء حائط نتناول الفطور . وكان مما قام حولنا من الجبال اثنان شهيران بما ينبتان ويجاوران . هما بنو مطر غرباً ، وفيه احسن ما يزرع في اليمن من البن ، ولُقُم شمالاً ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في شبه الجزيرة العربية كلها .

وما هي الا ساعة بعد ارتحالنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الجاف الشفّاف من الهواء . بينما نحن ندنو من لقم الذي اصبح على يميننا ، اذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً ، كأنها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسية ، في سهل ذهبي منقطع الاخضرار .

اثنا عشر يوماً في المشقات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها . اي صنعاء ، مثّلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثّلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ، ومثلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . اجل ، فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ، ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ،

يتبع حاشية صفحة ١١٨

عند اشتداد البرد يجمد الماء في صنعاء وقد سقط الثلج في ذمار لاول مرة في حياة من شاهدوه في شتاء سنة ١٣٤٠ — ١٩٢٢ ، سنة رحلتنا .

نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الامال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم . وهذه كنوزك وسحر قصورك وسحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير . كنا نظنها اسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال . ولكنها من الحقيقة في أعلى مكان . أفما صعدنا واياك ايها القارىء في نقيل السيّان : واجتزنا وادي نخلان ، وغمنا في يريم ووعلان ، وتقيّلنا في ظل بعدان ، وها نحن نشرف على قصر غمدان .

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر املاً . وكلما دنوت منها ، وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . فيها الهواء اعذب من الماء ، والماء اصفى من السماء ، والسماء اجمل من حلم الشعراء . وفيها البرد ، وقد علت تسعة الاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئا . وهي قائمة في قاع سنحان ، تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين . ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها . اقربها اليها عُصُر وهو يظلل المروج في الاصيل ، ونُقُم الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج — تلغراف المرايا — الذي ينقل اوامر الامام من قنة الى اخرى . وهذا عِشار وفيه الرخام والمرمر . وذاك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيهما معادن الطلق . وهناك رضراض وفيه معدن الفضة . وهنالك شبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق .

وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميلٍ خارج السور رجال

الامام وثلة من جنوده . وسرنا في موكب ألفناه وما مللناه لان « الزامل » ، نشيد الزيود ، عكس ثيابهم المنيّلة راقنا جداً . وكنا كل مرة يقفون فيه عند القرار الغريب الرهيب نمثلهم على العدو زاحفين ، وبمجرد الزامل غالبين منتصرين .

سرينا على موْر (١) حل (٢) السحر
ليلة مغدرة (٣) ما قمرها هليل (٤)
واصبح الصبح وحنّا (٥) براس النقيل
فنحور (٦) العدى غارسين الفتيل
نعقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم يهزجون فمروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء والى جانبها خارج السور ثكنة كبيرة شيدها الترك . ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى ، افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعاء والحيّ الجديد منها الذي يدعى بير العزب . هناك سمعنا وشاهدنا في مظاهر الاستقبال اليمانية مشهداً آخر كان له في لبنان مثيل . الا وهو « المشَوبِشْ » الذي يدعى في اليمن « الدَوْشن » فشرع يصيح مرحّباً بنا صياحاً فيه نبرات وغنّات جمعت بين رديء الخطابة والنشيد ، علمنا منها اننا نور شمس الكمال ، وقمر الفضل والجلال ، وغيرها من آيات المحال .

وعندما وصلنا الى بير العَزب ، اي الحي الذي يسكنه اغنياء صنعاء وفيه قصور الامام ومركز الحكومة ، ودخلنا البيت الذي اقمنا بعدئذ فيه بميدان الشرارة ، كان الخيال في الانتقال الى لبنان والى الشام

---

(١) نهر معروف. (٢) وقت. (٣) مظلمة. (٤) ما هل فيها قمر. (٥) نحن.
(٦) في نحور .

ابهج واتم . البيت صغير ولكنه في الذوق واسباب الراحة كبير . ردهة الاستقبال فيه تشرف على صحن في وسطه شاذروان ، وحوله القرنفل والريحان ، وفوقه تتدلى اغصان المشمش والرمان ، يغرد فيها القمري والحسون ، وتتلألأ خلالها الشمس فتكلل حبال الماء المتصاعدمن البركة لجيناً رجراجاً .

اما سرورنا الاكبر في اليوم الاول ففي مائدة ، على طاولة تحت المشمشة ، عند الشاذروان ، بادرنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرسي كرسي ، وان في ايدينا الشوكة والسكين ، وان ما نأكل قد طبخه طباخ متمدن ، وان بالغ بالابازير . ثم سألنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الآخر ـ الحمام . فقام السيد علي زباره ، وهو وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام : الحمام يوم وصولكم لا يجوز . ولكني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت الحمام ، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه ، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل على ذوق السيد علي ولطفه . فقد بعث الى صاحب الحمام يأمره بتنظيفه واعداده لنا ـ لنا وحدنا .

ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول في ذلك هو التحذر من اجتماعنا بالناس ومحادثتهم وذلك عملاً بامر الحضرة الامامية الشريفةالتي كانت يوم وصولنا متغيبة في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال سريح استفحل امره . وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤوساء تلك القبائل كانوا يفاوضون السيد الادريسي لينضموا اليه وينصروه على الزيود . فلما أُخبر الامام بقدومنا امر الا نقابل احداً من الناس قبل رجوعه .

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبدالله العمري وهو يد الامام اليمنى ورئيس ديوانه ، فاستأنسنا بحضرته وسررنا بحديثه . الفيناه على جانب كبير من الفضل والاتضاع ، ومن الحكمة

والتساهل ، فحملنا زيارته على المقابلة بينه وبين اولئك المتبجحين امراء الجيش وشكرنا الله ان في رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة ، ويحسنون الرأي والموازنة .

سألنا زائرنا عن زميله القاضي عبدالله العرشي فاجبناه بما نعلم فقال: له سنة في عدن ولم يفعل شيئاً (اي في محادثاته مع الانكليز بخصوص الحديدة) وسألناه نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال : النقص موجود وبعض الخلل . ولكنها نتيجة غيرة اخطأت السبيل . الشافعي والزيدي اليوم متساويان . وحضرة الامام عالم عادل ، سديد الرأي ، سمح الخلق ، قويم الخطة ، لا يعرف في اقامة الحق غير الشرع . ولا يفرق بين الكبير والصغير او بين الزيدي والشافعي . ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعقلون . نياتهم حسنة اما غيرتهم فقد اخطأت كما قلت السبيل . . . نعم حضرة الامـــام يضبط الامور بيد شديدة . لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها ، الا في الاطراف حيث بعض الاضطراب لا يزال موجوداً .

كانت هذه من القاضي عبدالله اولى الزيارات وآخرها اثناء غيبـة الامام ، وما علمنا السبب في ذلك . الا اننا كنا راغبين في مقابلة رجل اخر كان معنا كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد علي زباره فقال : حينما يرجع الامام . وراح ذات يوم خادمنا الى المدينة فعاد يحدث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب فاستاذنا السيد علياً في زيارتها بينما نحن ننتظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا شرطيين وأحد الموظفين . مشينا في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير المبني من اللبن والطين ، ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام ، اي بوابة الشمال ، فتباحث اذ ذاك الموظف والجنود

وكنت قد سألتهم ان ندخل المدينة وكانوا قد ملّوا المشي في الشمس على ما اظن . فاسفر البحث عن اجابة طلبي بشرط ان لا يعلم السيد علي بذلك . دخلنا المدينة وقد تعاهدنا على ان نكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها دون اسواق التجارة .

ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلا ، اسواقها مثل اسواق جده غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، وبعضها ست طبقات ، فبناؤها اجمل هندسة واكثر اتقاناً لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوروبي . وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالآجر والبعض باللبن ، وبين كل طابق والاخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية ، وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه امتن من الزجاج واجمل . وهناك في الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنظرة ، يستخدمها الناس للإستقبال والقيلولة فيفرشونهـــا بالطنافس والمساند والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلونونه أحمر واصفر واخضر وازرق ، اي الاصبـــاغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات .

اما الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان رفيقي ، ونحن ننتقل من حي الى آخر كأننا نبحث عن بيت نقيم فيه ، يقول : هذه الدرجـــة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . ولو كان في جوارها او فيها من البدو لكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور .

مـا عرفت اليمن اثناء الحرب ولم تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والأجور . ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعاء ليشوق اخواني في مصر ونيويورك الى الاقامة فيها ، وقد يحمل بعضهم على السفر حـــالا الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجـة الاولى اي في احسن حي من المدينة ، وفيهـا المنظرات ، والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منها غـير اربعة ريالات نمساوية شهرياً اي اربعون غرشاً مصرياً . اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاثة ريالات . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، له زناران من الجص وكوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فـلا تقل حسناً ولا تزيد نفقة عن البيوت (١)

وهم مع ذلك يشكون – يشكون قلة المال ووقوف الاشغال ، وعسر الاحوال . ومنهم من ينسبونها كلها الى حكم الامام ، ومنهم الى الله وحده ، ومنهم العاقلون الذين يبرئون الله والامام من شرور هذه الايام ، وقد وصل بعضها الى اليمن عن طريق السياسة ، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم . اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة

(١) لم تتأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بعدها من غـــلاء حاجات المعيشة لان ارضهم ، ولا تزرع كلها ، تطعمهم ، وانوالهم تكسيهم ، فلا يحتاجون غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . وهاك بعض الاسعار سنة ١٩٢٢ .

لحم الضان ثمن الرطل ٤ غروش

لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش

السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً

القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً .

البطاطس ثمن القدح ٢٠ غرشاً .

القدح ٤٠ اقة ، والاقة في اليمن كيلو وثلاثة ارباع ، والريال النمساوي الذي يقسم مثل المجيدي الى عشرين غرشاً يساوي عشرة غروش مصرية .

كما قاوم تلك ُيكثر الضرائب ، ويدخر الاموال ، فتقل ولا غرو في ايـــدي الناس فتسبب وقوف الاشغال وعسر الاحوال فضلاً عمـا يعتري اليمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الاهلية . فضلاً عن العشائر وجميعها مسلحة فيندر في البلاد ذاك الغرس الطيب ، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل ان الناس مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذلــك الجهل ، والسبب الاكبر هو الجهل المسلح .

قال المأمور دليلي : بعد ان حاصر الامام صنعاء[1] وسلم الترك غنمنا من البنادق خيرات (اي كثيراً) فكانت بندقية الموزر تباع بريال واحد وبعد وقعة شهاره من استطاع ان يجر مدفعاً الى بيته اعطي له. فلا عجب اذا كان في العشائر من يناهض الامام ويعصي جيوشه المنظمة .

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانه قد سبقنا الى بير العَزَب ودخل مفسداً حيث لايستطيع سواه . لذلك لما رغبنا المرة الثانية في النزهة قال السيد علي دون ان يظهر ما علمه من سرنا : الاولاد في المدينة يجتمعون عليكم ويزعجونكم .

سكتنا على علمنا اننا اسرى الى ان يرجع الامام. والاسير لشدة ما يحدّق بالجدران يصبح حاد النظر، وتتنبه فيه كذلك الحواس الاخرى . فقد سمعت مرة صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة ـ تك تك ـ تك تك

(١) هو حصار صنعاء ١٩٠٤ الذي استمر ستة اشهر فأكل اهل المدينة اثناء الحصار لحم البغال والحمير حتى والفيران وكان عدد الاتراك الذين سلموا وفيهم الاهالي لا يقل كما قيل لنا عن الستين الفاً . ولكنهم اعادوا بعد ذلك الكرة على صنعـــاء فتقهقر الامام وجنوده الى شهاره فتبعهم العدو الى تلك المضايق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هي وقعة شهاره المشهورة . لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل غلبوا ثلاثين الفاً من الاتراك وقد حاربوهم بالصخور ايضاً يدحرجونها عليهم . واهل اليمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من كرامات الامام .

تلك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفت شريط السلك اي التلغراف وعلمت ان المركز فوقنا في الطابق الثاني من البيت .
وكان لمنزلنا باب موصد من الخارج بينه وبين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيه ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتنافرون. ثم جاء واحد وهو يقول: هم عرب مثلنا . وفتح الباب فاستاذنته في الخروج الى الحوش فأذن هاشاً وكان هو الدليل الانيس . اخبرني اننا مقيمون في بيت من بيوت الامام العديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها تقية ، ورعة ، عالمة عادلة فهي تجلس للناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحة . اما المجلس الرسمي ففي الطابق الثاني من البيت .

نحن اذن قريبون جداً من الحضرة الشريفة . او انها تعطفاً – وقال المفسدون تحفظاً – جعلتنا على مقربة من الاذن الامامية والعين العلوية ، ومما لا ريب فيه ان الزيود يتقون كثيراً ويتكتمون كأن هذه الخلة ، وهم قريبون من المذاهب الباطنية ، صلة الانتساب بينهم وبينها . زد على ذلك انهم يختلفون عن العرب بانهم شغفون بالفخفخة والابهة الظاهرة . ولنا في موكب الحضرة الشريفة دليل وبرهان . كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الامام يوم يؤم المسجد الجامع ، فتحف به السادة والعلماء ، وتمشي امامه ووراءه الجنود وهم ينشدون « الزامل » تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان ، والمظلة وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكواكب ، وقد مشى تحتها القمر المنير سبُل الدنيا والدين .

هي ذي المظلة التي طبق ذكرها الافاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان . قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة . وفتحها فاذا هي كالخيمة ، قطرها ثلاثة اذرع ، وكلتها

مصنوعة من الحرير الازرق والابيض المزركش ، وعلى اطرافهـا من الخرج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة .

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة حجماً وشكلاً ، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس . والى جانبها البيـــارق والرايات فكان الدليل اللطيف اسرع بيده مني برغبتي . ففتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكم فتحاً مبيناً . والثانية صفراء مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل السيوف . والثالثة بيضاء وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة .

سررت بخروجي الى الحوش وبدليلي . ولا غرو ، فقد شاهدت الرايات والطبول ، ولمست بيدي المظلة الشريفة ، واستأنست بالجندي الكريم الذي نفعني بشيء من علومه ، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً بطرائف الامام . « كان قبلك في هـذا البيت فتحي بك [1] وكان الامـام يزوره ليلاً وحده . سافر الاسبوع الماضي وهو رجل « ناهي » اعطاني هذه « الساكوة » واستدان مني عشرة ريالات اعادها اليّ عند سفره عشرين ... لا ادري والله ولكني سمعتهم يقولون انه جاء من مصر ليصلح السلك (التلغراف) . »

ولكن الجندي في اليمن ، مثل قارىء الجرائد في البلاد المتمدنة ، لا يعرف من الشؤون السياسية غير ما يذاع رسمياً لابعاده عن حقيقتها . فغداً يحدّث عنا فيقول : اننا جئنا من الجامعة الاميركية لنشتري الكتب الخطية .

---

(١) جاء من قبل مصطفى كمال الذي كان بينه وبين الامام يحيى في ذاك الحين مفاوضات سياسية .

الضيف المأسور

الامام في مجلسه – فراش الملك – خطاب ابين فيه قصدي ومذهبي – كتاب التوصية من الملك حسين – الوحدة العربية والوحدة الاسلامية محط رحالها – «هل عندكم كلام مضبوط؟» – قصيدة الامام – المهنئون – تقبيل اليد والرجل – ملوك اليمن قديماً – التقاليد والعادات – جرجي النمساوي – شيخ الاسلام – « مسيحيان من لبنان» – رجل المسيح السمحاء – عدد سكان اليمن – السياسة الاوربية – ما يؤثر عن جورج وشنطون – العرائض – عريضة تغيظ الامام – « اذهبوا اذهبوا » الوشاية والظن – ضيف مأسور – كتابي الى الامام يعاد الي – السلك يشتغل – باب الفرج – اصل المحنة .

اربعة ايام مضت ولم نخرج من البيت الا مرة واحدة. ثم عاد الامام الى صنعاء من رحلته السلمية موفقاً فأم قصره اولاً وجلس بعد الظهر للزائرين ، فكنا بعد استئذانه اول المسلّمين المهنئين . لم اشاهد في طريقنا اليه ، لا في الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب شيئاً من تلك الابهة العسكرية المصنوعة التي شاهدناها في ماويه وذَمار . حاجب واحد ، وهو جندي زيدي في عمامته غصن من الحبق ، فتح لنا الباب حين رآنا قادمين .

دخلنا وفينا ما يعتري كل غريب على ما اظن في مثل هذه الحال ، اي الشوق الذي يسوده الاحترام ويشوبه بعض الظن. اترى الامام مثل امراء جيشه ، ام هو كريم الخلق لطيف الذوق كالملك حسين ؟ أيشف ظاهره عن باطنه ، فترق ملامحه ، ويستطيل وجهه ، شأن معظم الائمة والعلماء ، ام يخدع بما يكنه مما لا تفصح عنه الوجوه والاشارات ؟

دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه . له فم كفم الطفل صغير بارز الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روّاعة وله لحية قصيرة مستديرة سوداء تتخللها خيوط من الشيب . يلبس قباء من القطن مخططاً فوقه جبة ذات اردان من نسج اليمن ، ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبيه الوسائد يتكىء عليها ، وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له. وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صافحناه مسلمّين فرد السلام مرحباً بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش، والغرفة الصغيرة مفروشة بمثلها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط اليمن والبلاد العربية باللغة التركية .

كان في نيتي ان القي كلمة في حضرته فحدثته بها جالساً . ومما قلته بعد تهنئتي بعوده سالماً موفقاً : اني جئت من وراء البحار واقاصي الديار عملاً بعاطفة لا قوة للقومية بسواها ، ولا عز للامم بدونها ، فاننا مهما استرسلنا في حب الانسانية المطلق لا ننسى اذ كنا منصفين حب الوطن الخاص . وهذا الحب يحملني اليوم على السياحة في البلاد العربية . فاني، وان كان لبنان وطني الصغير ، وسوريا وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني الاكبر . . واني ، وان كانت المسيحية ديني ودين اجدادي ، ادين بدين كل من اقام حقاً وازهق باطلاً . بل ادين بدين فلاسفة العرب وشعرائها الكبار كالغزالي وابن الفارض والمعري ابي

العلاء . بل ادين بدين كل من قال بالوحدة العربية ،وتجديد مجد العرب، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً خالصاً لوجه الله . فمن أعز العرب أعز يا مولاي الاسلام .. ولا غرو اذا جئت بلاد اليمن حاجاً هذه الكعبة المباركة وقد منعت عني تلك المقدسة كعبة الاسلام الاولى . على اني لقيت في جدة ، في مقام الملك حسين الرحب العالي ، من الفضل العربي ، والمكارم الهاشمية ، ما سأذكره دائماً شاكراً مفتخراً . واول مرة ذكرت في حضرته اني ارغب في زيارتكم كان— حماه وحماكم الله — اول المستحسنين بل اول المحبذين والمشجعين . فجئت يرافقني باذن جلالته صديقي العزيز القديم الشيخ قسطنطين يني ،وهو في حب العرب والعربية على جانب عظيم من الغيرة والاخلاص .. والبلاد اليمانية مهد العرب ! جئناها متجشمين المشقات، مذللين العقبات، مصعدين في الجبال الشامخة، متغلغلين في اوديتها المعطرة الارجاء ، ونحن اثناء الرحيل وقبله ننظر بعين الحب والشوق الى هذه السدة المباركة نستمد منها النشاط في السير والسرى . وكنا نلاقي في كل بلد حللناه من حسن الحفاوة والاكرام ما شكرناكم بعد الله عليه ، وسجلناه لكم في صميم الفؤاد ليحفظ مدى العمر ذكراً ذكياً جميلاً .

فاه حضرة الامام ببعض كلمات الشكر والترحيب ثم وقف قسطنطين فتلا قصيدة كان قد نظمها في الطريق فسرّ بهـــا واثنى عليه ثم قدمنا لحضرته كتاباً من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال : ولكن الكاتب اهمل الاسم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضاً او ذهولاً . اما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جدة كان قد كتب كتاب تعريف احمله الى حضرة الامام ، فلم يستحسنه جلالة الملك ، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب كتاباً آخر ? يعرّف فيـه الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ

الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمداً اسمي لأسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئاً من غوامض السياسة الهاشمية .

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ . ونحن ،لخاطرجال في ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، نقاسي ما سيجيء ذكره . افضنا في الحديث بالوحدة العربية، فكانت اول كلمات الامام في الموضوع: وصلتم الى محط رحالها. بيد انه الداعي الى الوحدة الاسلامية ، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية أصح أساساً وأسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية . ومن أعز العرب أعز الاسلام .

وكنت قد طالعت قصيدة الامام المشهورة التي مطلعها :

مغلغلة منشورة في المحافل   تهيم وتذري الدمع تهيام ثاكل

والتي يستنهض فيها المسلمين واخوان الدين ويحثهم على الاجتماع والتعاضد .

ايا قوم هبوا شمروا وتعاضدوا   وحوطوا ذمار الدين عن كل مائل
كما فعلت اصحاب طه ومن تلا – همو قافياً آثارهم من حلاحل

فقلت : ان القومية تجمع الشعوب والدين يفرقهم . واننا نحن المسيحيين في سوريا مثل العرب المسلمين تجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم ، ولا يجمعنا الدين . ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص – من مجمل القضية الى اجزائها – فكان الامام اكثر اهتماماً لذلك . مما دلني على انه ذو عقل عملي حاذق . واني اذكر كلمته عندما اشرنا الى المهمة التي انتدبنا انفسنا لها فسألنا قائلاً : هل عندكم كلام مضبوط ؟ الا ان بعض الزائرين دخلوا اذ ذاك فمر بيده على فمه . فسكتنا ، وتأجل البحث في الموضوع الى وقت آخر .

دخل الزائرون المهنئون وفيهم بعض السوريين من طرابلس الشام

وبعض الضباط الترك ، فظهر لنا ، من استقبال الامام ومن تقبيل اليد الامامية تقبيلات متنوعة لهـا درجات ومقامات ، ان العظمة و « المحسوبية » في صنعاء أشد منهما في الحجاز .

قرأت كتاباً لرحالة فرنسي ، رافق في القرن السابع عشر بعثة تجارية الى اليمن ، وصف فيه زيارتهم للملك في مقره ذاك الحين بالقرب من ذمار [١] ووصف كذلك خروجه الى الصلاة يوم الجمعة وصفـاً ينبئنا بما لعادات اليوم هناك من الجذور في التقاليد . وهـذا الامـام يحيى في القرن الثالث عشر للهجرة يجلس على فراش الملك كما كان يجلس اجداده في القرن الثالث ويأذن بتقبيل يده وكفه وركبته ورجله . بل يأكل فوق ذلك القات : ويشرب من الماء ويحمد الله . ولا يقف مسلّماً الا لواحد في ملكه .

على انه تزحزح قليلًا عندما دخل محمود بك نديم آخرُ والٍ من ولاة الاتراك في اليمن وهو كردي الاصل سوري المولد . فاستقبله واقفاً نصف وقفة ، وبادله قبلة اليد بقبلة في وجهه . ثم دخل ضابط تركي في ثوبه ونياشينه وجزمته فركع امام الامام وقبل يده وجلس على الديوان . ثم ذلك الافرنجي اي النمساوي الموكل بعمل الخرطوش ، اي جرجي المشهور في اليمن ، فقدمه الامام الينا قائلاً : هـذا منكم : ثم دخل شيخ نحيل الجسم ، طويل اللحية ، حليق الشارب ، يشبه اميركياً من اميركيي نيوانكلند القدماء فاستوى الامام واقفاً وصافحه مصافحة الاقران . هو شيخ الاسلام الذي تبوأ مكانه في الزاوية . وكان قد تقدم حضرته ثلاثة صبيـان ، منهم اثنان من اولاد الامـام يرفلون بالاثواب المخططة ذات الاردان . وعلى اكتافهم البردُ اليمانية ، وعلى

(١) هو الامام المهدي لدين الله .

رؤوسهم عمم مزركشة بالقصب ومكتوب عليها آيات من القرآن . دخلوا دون ان يفوزوا بنظرة منه .

غصت القاعة بالمهنئين ، وكان حضرته يعرّفهم الينا فيقول : هذا امين ، وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان فقلت : حضرة الامـــام شغف بالسجع . فقال : انتم السجع ، تنوعت الاحاديث وكان هو مدير رحاها ، فسألني سؤالاً غريباً ثم جاوب عليه فكان الجواب اشد غرابة : لمـــاذا دُعي صاحب الديانة المسيحية بالمسيح ؟ فاجبته بكلمة تاريخية وجيزة فلم يقنع ، فقال : لان رجله كانت مسحاء . واشار بيده الى رجله ثم توكيداً بالسبابة الى خط الانحناء اي القوس في راحتها .

قد ساءتني والحق يقال هـذه النسبة وان لم يكن الاحتقار فيهـا مقصوداً ، وعاد بي الفكر الى جده ، الى مجلس الملك حسين ، الذي لا يسمع فيه الزائر كلمة واحدة تكدر او تسيء . بل لا يسمع غير ما يسر ويفكه ويفيد . اما الرجل المسحاء والمسيح ! لم اتمكن على تساهلي من دفع ما وقر من هذه الكلمة في النفس وقد اكون اسأت الى الحضرة الشريفة في سؤال سألته لانه في ذاك الموقف لا يليق ولا يجوز . ولكن عذري اني طالب علم سائح في سبيله . قلت : اتعلمون يا مولاي كم عدد سكان اليمن ؟ فقال : بالتقريب لا بالتحقيق ، خمسة ملايين . فقلت وكم منهم تحكمون ؟ فاجاب وهو يبتسم ويضم انامله الى كفه اليسير ، اليسير . فقال الضابط التركي باللغة العربية وكان قوله ولا شك تزلفاً : كل واحد من الخمسة ملايين مطيع للامام ، فاعترضه الامام قائلاً : لا لا . ومال بوجهه إليّ وهو يشير بيده تلك الاشارة اللطيفة البليغة كأنه يقول : حفنةٌ منهم فقط .

اما حدود اليمن فالامام لا يعرف منها غير القديمة التي كانت تشمل

عمان وحضرموت . فاذا اعتبرنا هذا التحديد وفهمنا اشارة الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية باجلى مظاهرها .

وكان الحديث بعد ذلك في السياسة الاوروبية فادهشني منه ما يعلم وما يهتم به من اخبار العالم . فهو يطالع الجرائد المصرية ، واذا ضاق دون المطالعة وقته يدفعها الى احد كتاب ديوانه فيلخص له الاخبار كأنه من هذا القبيل مدير شركة اميركية او رئيس وزارة بريطانية — سألني عن ارلنده — وهل حازت استقلالها ؟ سألني عن لويد جورج — وهل يخلفه في الوزارة كرزن ؟ وعن زغلول باشا — واين هو الآن ؟ وعن الاتراك — وهل عقدت المعاهدة بين مصطفي كمال والفرنسيس ؟ وعن اميركا — وكم سنة يحكم الرئيس ؟ وهل يعاد انتخابه ؟ وكم مرة يجوز ان يعاد ؟ فلما اخبرته عن الرئيس الاول جورج وشنطون الذي ترأس مرتين ورفض الثالثة قائلاً : ما تحررنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا في هذه البلاد ، اعجب جداً . اما كلمته المأثورة : فاستعدوا في ايام السلم للحرب . فابرق لها جبين الامام كأنها حديث شريف ، واطرق وهو يهز برأسه ويقول : ناهي ، كلام ناهي ، حكمة رائعة .

وما توقف عن اكل القات وشرب الماء اثناء الحديث . ولا رد واحداً ممن جاؤوه يحملون العرائض والكتب . الا انها كانت تقدم بواسطة الحاجب فيفضها في الحال ويقضي بها . ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها انظر اليه واراقب عينيه ، وفيهما يبدأ الانفجار او ما يشير اليه . انما الغريب ان قد تشهر العين الحرب عليك في حين ان الفم ، مثل رسول السلم ، يبسم لك مطمئناً . كثيراً ما شاهدت هذه السيماء المتناقضة فيه . ولكنه في ذاك الحين تغير تماماً فساد الغضب في ناظريه ، وقلص العنف شفتيه

فاستأذنا بعد ان فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فاشار بيده اشارة سريعة جافية ان اذهبوا اذهبوا ، ولم يفه بكلمة سلام واحدة .

خرجنا كالمطرودين ، وبتنا في امر هذا الامام حائرين ، أبدوي هو اذا غضب ، وسياسي اذا رغب ، وشاعر في ما يحب ؟ أعالم مجتهد ، وحاكم مستبد ؟ أغليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان في شخص واحد — في زيدي ؟ هو في امور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد الغلط ، ولكنه عادل ، وفي اقامة الحق لا يميل ولا يحابي ، وعند الاقتضاء سمح حليم ان له في حكمه فضائل اخرى ، منها انه يستشير ذوي العلم والخير من رجاله ، وطريقته في الادارة والعمل منظمة ، وقوته على العمل عظيمة مدهشة ، رأيته في ليالي رمضان ، وقد انصرف جميع كتاب الديوان ، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، وسيدخل القارىء بعدئذ الى ديوانه ، فيرى كل شيء في مكانه .

اما الان فعلائقنا — في لغة السياسيين والصحافيين — متوترة ، ومنا بدا منا ، على ما اعلم ، ما يسيء الى الحضرة الشريفة بشيء ، فقد قبلنا « رجل المسيح المسحاء » قائلين : ان الامام من المجتهدين ، وطويل البال في غوامض الدين ، ولكن رجل حضرته انيقة الشكل لها قوس بليغ ، يدل بحسب علم الفراسة ، على طيب الارومة ، وحسن الذوق ، وكرم الاخلاق ، فاين هذه الفضائل من تلك الاشارة العنيفة ، وذاك الوجه القطوب ؟ ونحن ضيوفه ورسل السلم والخير اليه .

مرّ اليوم الاول بعد هذه المقابلة ونحن ننتظر من حضرته كلمة تسكن منا البال ، او اشارة تعيد الينا الثقة والامل ، ومرّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً ، ونود لو جاءنا احد يساعدنا على محنة

الريب وسوء الظن، بل نود انفسنا بعيـدين عن الزيود وبلادهم . أفلم يرضَ الامام يا ترى بكتاب الملك حسين، ام هو في ريب من أمرنا مما قد يكون سبقنا الى عاصمته والى ديوانه من الوشايات . فقـد قال لي احد السادة : الناس مشتبهون بكم ، حتى الذين اكرموكم يكتبون الى الامام ليتحرز منكم . فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياتنا يا ترى ؟

استأذنا السيد علي بزيارة المدينة فكان جوابه انه يخاف علينـا من الاولاد بل على كيسنا من الشحاذين . ثم استأذناه في اليوم الثاني بالطواف حول السور فقال أن المشي في الشمس يتعبنا ، وقد تؤذينا شمس اليمن المحرقة ، فالاحسن ان نخرج عند الغروب ، ثم جاء سيادته عنـد الغروب يصحبه احد الموظفين يزورنا فتعذر علينـا الخروج للنزهة ، وقد قال ان اشغال الامام بسبب تغيبه كثيرة ، وسيأذن بمقابلة اخرى قريباً ان شاء الله . . .

اما الرفيق قسطنطين فكان يستعين على هـذه الحالة المزعجة بنظم الاشعار . فلما فتحت دفتري مساء ذاك النهار لأدون فيه بعض الخواطر اطلعت على ما يلي : : وبما اني لا اعتقد بالجن تيقنت ان البيتين من نظم مكروب مثلي ، قال الرفيق ؟

ترجو الخروج الى المدينة باحثاً   فيهـــا عن الشيء الذي لا تعلم
لكن لسوء الحظ بابك موصد   « ان اللبيب من الاشارة يفهم »

وفي اليوم الثالث وانا اشك حتى في ما قاله الرفيق، حاولت الخروج الى الساحة فردني أحـد الجنود في الباب . صدقت في شعرك مرة ايها الشاعر العزيز ، فنحن لا نزال أسيرين ولكننا علمنا السبب وقبلنا العذر يوم كان الامام غائباً ، فما السبب وما العذر الآن يا ترى ؟ بادرت الى الورق والقلم وكتبت الى الحضرة الامامية كلمة يمكنني ان انقلها بالحرف

لانها أُعيدت اليّ :

مولاي .

حياكم الله بالخير والسعادة ، اما بعد فاني منذ وطئت ارضكم أسير فضلكم ، وموضوع اكرامكم ، وسأكون مدى العمر شاكراً لكم . وجئت الآن اسألكم ، واستميح عن ذلك عذراً لعلمي بما انتم فيه من الاشغال المتراكمة اثناء غيابكم ، ان تعلموني اذا كنتم تسمحون بمقابلة خاصة ومتى . فاني مقيد بخطة سفرٍ تضطرني الى القيام باذن الله بالمحدد من زمانٍ ومكان ، وفي كل حال اني شاكر ابداً لمولاي الامام ، فخر العرب والاسلام ، حمى الله ذماره ، وأعز بنوده ومناره ،

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٠ امين الريحاني

فاعاد الامام كما قلت الكتاب اليّ وقد كتب في اعلاه بخط يده :

عافاكم الله ووفقكم ، لا بد نطلبكم لما اشرتم اليه ان شاء الله قريباً ه

والحرف الاخير ه علامته الخصوصية في كل ما يكتبه ويُكتب باسمه .

زادني الكتاب حيرة واضطرابا ، فضلًا عما ظننته اهانة مقصودة ، أهذه طريقة الزيود في المراسلة ؟ او انها طريقة الامام في ما يختص بالنصارى ، فلا يرغب حتى بورقة من اشيائهم ؟ قد اكون اسأت الظن ساعة الحنق والاضطراب ، على ان ما عرفته بعدئذٍ وشاهدته اثناء اقامتي في صنعاء لم يكن ليزيل التأثير الاول كله تماماً .

كادت تحملني تلك المعاملة على الاستئذان بالرحيل لاني ، ولا بد من الجهر بذلك ، سئمت ما شاهدت في طريقي الى صنعاء من مظاهر الاجتماع والسياسة ، سئمتها كعربي محب لابناء جنسه ، راغب في نجاحهم

وعمران بلادهم ، وها اني في صنعاء اسير ريب الامام بعد ان كنت اسير فضله ، فما السبب في الانقلاب ؟

ما نمت تلك الليلة الا قليلاً ، و كنت كل مرة استفيق اسمع السلك يشتغل مجداً ، وفي انبائه البرقية ما قد يزيل في الغربة الكربة ، ولا حاجة لـ « قد » التوقيع . فان سبب كربتنا كما تحققنا انما هو الملك حسين ، او بالحري كتاب التوصية منه ، فرأى الامام الحكمة في تثبت الامر قبل ان يفاوضنا بشيء ، فاشتغل السلك لذلك ، وكان الجواب من عدن ، والحمد لله ، مثبتاً ما اكرمنا من اجله ذلك الاكرام الجميل في الطريق ، فاذا كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى ان تكون نتيجة كتاب التحرير ؟

حكم الامام

الامامة بالسيف – شروطها – سبب الفتن والحروب – الرهائن – أعداء الامام – اليمن في الماضي – اول امام زيدي في اليمن – الفرق الزيدية – الائمة الاقدمون – اليمن الاكبر – القرامطة في اليمن – اول دخول الاتراك – اول ثورة عليهم – خروج اشراف ابي عريش على امام صنعاء – خروج لحج وعدن من حوزته – رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ – انهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ – ثم سنة ١٨٩١ – الامام المنصور – احمد فيضي باشا – الامام يحيى – ثورة ١٩٠٤ – حصار صنعاء – الصلح – ثورة ١٩١١ – عزت باشا – معاهدة ١٩١١ – رجوع الامام الى شهارة – الحرب العظمى – رسوله الى لحج والانكليز – كتاب ملوك العرب – اعداء الامام بعد الحرب – التجاؤهم الى الملك حسين والسيد الادريسي – الشوافع – العشار .

ان الحكم في اليمن ديني وضعاً ومدني عملاً ، له فروع في الاصل مذهبية وله مظاهر في العمل غير يمانية فقد أخرجهم الامام زيد [1] الذي ينتسبون اليه او الداعي الاول الى مذهبه في اليمن عن العقيدة بالامام المنتظر ، وعلمهم الترك بعض النظام في الادارة وفي الجيش . ولكان الحكم هناك قريباً من الديمقراطي لو انهم انتخبوا الامام وبايعوه على طريقة الصحابة ، بدل ان يجعلوا الامامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف . ولكن عقيدة غامضة باطنية في من انشق الزيود عنهم حملتهم ، على ما اظن ، على التمسك بضدها . قالت فرقة الشيعة : لا امام بعد الامام

(١) هو زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي جاهد ليسترجع الامامة التي اغتصبها الامويون فاضطهد وصلب .

الثاني عشر وهو صاحب الزمان [1] فامست من العقائد الدينيـة التي ينمو فيها مكروب الخرافة ، فيفسد الحياة الروحية ، ويشين اساليب العبادة فيجعلها سخرية .

وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها ويقضي على صاحب الزمان ، كأن الزيديين يقولون لخصومهم : اذا انتم رضيتم بامام موجود دائمـاً في كل مكان ، ولا يُرى في مكان ، فنحن لا نرضى . نحن نشتهي ان نرى الامام امامنا ولو في مكان واحد ، وفي فترة من الزمان . ولم يهتدوا في ذاك الحين الى غــير السيف اثباتاً لعقيدتهم وتحقيقاً لاملهم فقالوا: ان الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدهما ، فمن خرج منهم شاهراً سيفه، داعياً الى دينه ، وكان عالماً ورعاً ، انما هو

---

(١) هو الامام الثاني عشر الذي ظهر فترة في الارض ثم اختفى سنة ٥٣٦ ه . غاب عن الابصار لا عن القلوب ، ولا يزال غائباً . ولكنه حي ابداً ، وموجود في كل مكان ، وسيظهر ـ هو الامام المنتظر ـ ليطهر العالم من الفساد والضلال .

حاشية : قد تفضل احد علماء النجف فاصلح ما في الحاشية السابقة من الاغلاط التاريخية والدينية فقال ان الامام الثانيعشر ولد سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ ه ، وانه «غاب عن الابصار الغيبة الصغرى اي عن العامة دون الخاصة سنة ٢٦١ هـ ، وغاب الغيبة الكبرى اي عن الجميع الا نادراً سنة ٣٢٨ ه . فيكون عمره اليوم ١٠١٨ سنة .

ثم قال : « والامام الثاني عشر عند الامامية من الشيعة بشر مخلوق ، يحيا ويموت، ويأكل ويشرب ، وهو في مكان مخصوص من الارض غايته اننا لا نعرفه وربما يوجد من يعرفه وليس هو مقيد بمكان بل يتجول في الآفاق متنكراً متخفياً الى ان يأذن الله بالظهور » .

قد يشكل على القارىء قول العالم النجفي انه اي الامام المنتظر « في مكان مخصوص من الارض » وانه «يتجول في الافاق متنكراً » والذي أراه على قصر باعي في هذا العلم ، ان في الحالين شيئاً من الحقيقة . فهو يقيم في مكان مخصوص برهة من الزمن ثم يتجول متنكراً في الافاق . وقد قال لي الداعي في عدن ان صاحب الزمان هو اليوم في اميركا .

الامام المنتظر .

اما شروط الامامة عندهم فاربعة عشر [1] شرطاً، منها ان الامام يجب ان يكون مكلفاً بالغاً ، وحراً اي ليس بعبد،ومجتهداً، وفارساً مقداماً . هي اربعة اصول صحيحة تضمن على الاقل النظام في الملك، لانها تنفي الوراثة وفيها من المجهول المحذور ما قد يكون الشر الاكبر في الاحكام كما يدل على ذلك تاريخ الملكيات وبعض من يحكموها من السفهاء والمعاتيه ، وهي تحول دون مطامع العبيد والمماليك — لا يزال منهم في قصور ملوك العرب اليوم وبعضهم يرتقون الى المناصب العالية — الذين زعزعوا اركان السيادة العربية الاسلامية واوهنوها بما كان في الماضي من اختلاساتهم المعروفة ، اما الاجتهاد فيوجب على الامام العلم، والعلم اليوم في اليمن وفي نجد ينحصر بالاربعة الاصول، اي القرآن والحديث والفقه واللغة ، ولكنه شرط مرن ، فيتناول في تطور الحيـــاة ولا شك شيئاً من العلوم الكونية ، اما الشجاعة والفروسية فليس من ينكر الفضل فيهما، لم تكونا الركن الاول لعقيدة دينية او لحكم مدني .

ولعمري ان شروط الامامة في الزيدية لمن خير ما تتطلبه الجماعات في حكامها لولا هذا الشرط الذي ينزل السيف منزل الشورى والمبايعة فهو ولا عجب السبب الاكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة التي دعاها الرومانيون سعيدة ، ونتمنى نحن اليوم ان تكون السعادة فيها حقيقة لا خيالاً .

(١) وهي ان يكون الامام مكلفاً ، ذكراً ، حراً ، مجتهداً، علوياً ، فاطمياً ، عدلاً سخياً ورعاً ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الاطراف ، صاحب رأي وتدبير ، مقداماً فارساً .

وكيف يثبت ملك فيها ويدوم نظام ، وكيف تصمن سبل الفلاح والعمران ، اذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طماحاً، وكانت له بعض السيادة في عشيرته ، ان يخرج شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، طالباً الامامة ؟ وان في اليمن اليوم عدداً من هؤلاء الطامحين اليها،ومنهم من كان اباؤهم او اجدادهم ائمة حاكمين . فاذا أحسوا بوهن في حكم الامام ، او بضعف في موقفه ، فسيف الاسلام عليه . فيتسع المجال اذ ذاك لغيره من سيوف الاسلام ، فتشب نار الفتنة ، وتدق طبول الحرب ، ويخنق دخان الفوضى روح الامن والنظام والعدل .

لا نخطىء اذا قلنا ان الفتن في اليمن حالة مستمرة يتخللها في بعض الاحايين فترات يسود فيها السلم والسكينة . وقد كانت قبل ان جلا الترك عنهـا ميداناً لسيف الاسلام – الجهاد ثالث الماء والزاد – بل لسيف الامام زيد ، بل لسيف كل طماح من السادة المحترمين – ميدان هلاك ودمار ، لا يسكن فيه غبار ، ولا تخمد له نار ، الا في فترة عياء عام او تفوق شخصي مثل فترة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد ضبط الامر فيها بيد من حديد ، وبالعدل والرهائن .

ولا عجب ، وتلك طريقة الاستيلاء على الامامة ، اذا كانت الرهائن اساس الملك ، لكنه ، ولا ريب ، اساس فاسد ، لا يسلم حتى في ايام الحرب ، اجل ، ان الرهائن دمّل في حكم حضرة الامام ، بل دمّل في نفسية اهل اليمن ، لان الامة التي ترضى في ايام السلم ان يؤخذ ابناؤها رهينة الوفاء والامانة ، وان كانت سليمة العقيدة ، فليست بسليمة في وطنيتها ، لسنا نلوم الامام وهو يحكم مثل هذه الامـــة ، واعداؤه يحيطون به من الخارج ومن الداخل شمالاً وغرباً وجنوباً ، ومع ان البلاد اليوم في اكثر انحائها هادئة ساكنة، وسبل التجارة والسفر فيها

آمنة ، فهو دائماً في احتراب ظاهر مع الادريسي ، وفي احتراب خفي مع الشوافع ، وفي احتراب متقطع مع حاشد وبكيل . وفي احتراب سياسي مع الانكليز ، وفي احتراب كذلك مع من يدعون حمايتهم من العرب في النواحي التسع حول عدن ، هؤلاء اعداء الامام ، فضلاً عن السادة اقرانه ، الطـــامعين بمكانه ، ليس فراش الامامة بالفراش الوثير ، ولا امل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليمن والنجاح الا في نزع حق الامامة من السيف ووضعه في الشورى الحقيقية ، في المبايعة بالاقتراع بموجب السنة وعلى طريقة الصحابة .

لا ينكر ما كان لليمن في الماضي ، في عهد اسلاف الامام يحيى ، من المجد الاثيل والسيادة الواسعة ، وسأعود بالقارىء الف سنة الى عهد مضى ولا اكلفه قراءة اكثر من صفحة او صفحتين .

في القرن الثالث للهجرة جاء الى اليمن من العراق السيد يحيى بن الحسين القاسم الرّسي يدعو النـــاس الى المذهب الزيدي ، فاقام في صعدة يعلم عدة سنين ودُعي الامام ، هو رسول الزيدية الاول في اليمن ، ولكن الذي أسس الامامة في صعدة هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالرسي المذكور .

وقد تشعبت الزيدية الى فرق ، منها الجارودية نسبة الى ابي جارود زياد بن ابي زياد الذي سمي سرحوباً ، والسرحوب كما قيل شيطان اعمى يسكن البحر ، وهذه الفرقة تقول بالنص من النبي على امامة علي وصفاً لا تسمية ، وتختلف والفرق الاخرى في الامـــام المنتظر ، والسليمانية تتبع سليمان بن جرير وتقول ان الامامة شورى بين الخلق ، الا انها مقيدة بواحد من خيار المسلمين ، وهناك امور طفيفة يختلفون عليها منها سب الخليفتين الاولين ابي بكر وعمر ، فمنهم من يقول

بوجوب السب ، ومنهم من يقول بوجوب الاغضاء .

كان اليمن في عهد الائمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين (٩٣٠ هـ) الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء كان من الفاتحين الكبار . والامام المهدي احمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت . والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيس ان يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بمواهب ، وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة ١٧٠٩ م .

لكن الامامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً فقد انفتح فيها الباب للحسني والحسيني ولم تكن دائماً مستقلة . فقد حكم القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيء الترك ، ثم استولى السلطان سليمان القانوني على بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر (١٥١٧ م) ومنها عدن وقسم من اليمن . بيد انه ما عتّم ان ثار اهل اليمن على الترك فأخرجوهم بعد عشرين سنة من البلاد واستمرت الامامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مئة سنة فثار عليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شريف ابي عريش بتهامة واستقل عن اليمن . ثم ثار عليها احد عمالها في لحج فاستولى على عدن واعلن استقلاله .

وفي سنة ١٨٤٩ عاد الاتراك بقيادة توفيق باشا الى اليمن فنزلوا في الحديدة واستولوا على ابي عريش ، وتقدموا الى صنعاء . ولكنهم لم يستولوا عليها ، ولا تمكنوا من البقاء في اليمن الاعلى الا ان الثورات في تهامة وفي لحج قسمت البلاد ، واضعفت شوكة الامامة ، فقام السادة سنة ١٨٧٢ على الامام واستعانوا بالترك فدعوهم الى صنعاء . ففازوا هذه

المرة،ووطدوا في الجبال العالية حكمهم الى حين لان اهل اليمن الذين يثورون على سادتهم والسادات الذين يتمردون على امامهم لا يوالون الاجنبي طويلاً. ففي سنة ١٨٩١ نهضوا على الترك فحاربوهم واخرجوهم من صنعاء. و كانت تلك الثورة فاتحة حروب وفتن استمرت ربع قرن، يوماً تضطرم نارها ، ويوماً تهمد تحت الرماد وعندما قام عليهم الامام المنصور والد الامام يحيى بعثت الدولة الفريق احمد فيضي باشا،فتقدم بجنوده الى صنعاء فحاصرها واستولى عليها ، فتقهقر الامام المنصور الى صعده .

وعند وفاته خلفه ابنه الامام يحيى ، فاعاد سنة ١٩٠٤ الكرة على الترك ، فحاصرهم في صنعاء حصاراً دام ستة اشهر – «اطعمناهم النار والفار» – فسلموا بدون شرط . وقد فاز ايضاً الثائرون فوزاً مبيناً في نواحي اليمن الاسفل ، فغنموا من الترك في تلك الثورة سبعين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والسلاح على ان احمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة عاد بخمسين الفاً من الجنود لتأديب العصاة ،فاستولى ثانية على صنعاء ، ثم تتبع الامام الذي انسحب بجنوده الى شهاره . ولكنه دُحر شر دحرة هناك [1] فعقد بعدها اتفاقاً والامام – وقّع صلحاً – لم يدم غير بضع سنين .

ففي سنة ١٩١١ كانت العشائر قد تاقت الى الحرب ، فهجمت على صنعاء واحاطت بها تطلبها باسم الامام ولكنها لم تفز فوزها في حصار ١٩٠٤ – ١٩٠٥ . وكان يومئذ عزت باشا والي اليمن ، وكانت الدولة على اهبة الحرب مع ايطاليا . فسعى عزت بما كان له من حنكة ، وفصاحة ، وكرم اخلاق الى مصالحة الامام ليمنعه على الاقل من محالفة

(١) راجع شرح صفحة ١٢٦ من هذا الجزء .

العدو كما فعل بعدئذٍ السيد الادريسي .

وقد كان عزت كريماً جواداً ، فاستغوى العرب بالمال ، واستمال الامام بفصاحته وحذقه . فعقدت معاهدة ١٩١١ (شوال ١٣٢٧) لمدة عشر سنين وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة ان لا يكون في البلاد غير المحاكم الشرعية التي يعين الامام قضاتها . قد تعهدت الدولة كذلك بان تدفع للامام ولرجاله السادة ومشايخ حاشد وبكيل مشاهرات مالية مقدارها الفان وخمسمئة ليرة ذهباً . وبما ان الزيود ، بموجب مذهبهم ، لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم ، كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد حسم اثنين ونصف بالمئة بدل الجباية .

بعد عقد هذه المعاهدة عاد الامام يحيى الى الحميّر في شهاره ، وظل والاتراك على ولاء ما داموا يدفعون المشاهرات ويجمعون له الزكاة . الا انهم لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا به بعد دخولهم في الحرب العظمى ، ومع ذلك فلم ينقلب عليهم ، ولا ساعدهم على الادريسي في تهامة ، ولا على الانكليز في عدن ويظهر ان الانكليز هناك كانوا قد بدأوا يفاوضونه بطريقة غير رسمية ينضم الى الاحلاف في الحرب فارسل بطريقة غير رسمية ايضاً ، لان رسوله جاء الى لحج لا الى عدن يطلعهم على احواله ويعتذر . وقد كان يومئذٍ الكرنل جاكوب ، صاحب كتاب « ملوك العرب »[1] المعاون الاول للحاكم في عدن

---

(١) من غرائب الاتفاق ان عنوان كتابه الانكليزي ، الذي طبع في السنة الماضية والذي ينحصر موضوعه باليمن وعسير فقط ، وعنوان هذا الكتاب واحد . وقد قال الكرنل جاكوب في صفحة ٢٣٤ من كتابه ان التوراة التي جاء فيها ذكر ملوك العرب اوحت اليه العنوان . اما انا فاخذت عنواني من ملوك العرب انفسهم .

فذكر هذا الخبر في كتابه .[1]

الامام يحيى بن حميد الدين هو من سلالة الرسول الزيدي الاول في اليمن السيد يحيى بن الحسين الرسي . وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء ، وذا نفوذ كبير في عهد الامام شرف الدين فلما توفي الامام انتخب بالاجماع خلفاً له ودُعي بالمنصور . وبعد وفاة المنصور ظفر ابنه يحيى المتوكل على الله بالامامة . وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه وفي الثانية والعشرين من حكمه ، قضى اكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات . ولحضرة الامام اربع زوجات شرعيات جاءه منهن اربعة وثلاثون ولداً ، مات منهم ثمانية عشر ، اما الباقون ... محمد سيف الاسلام البكر ، والمطهّر ، و...قاسم ، والحسين ، وخمس بنات متزوجات .

عندما توفي ابوه المنصور سنة ١٩٠٢ قام بعض السادة يطالبون بالامامة ومنهم السيد احمد بن قاسم بن عبدالله المعروف بالضحياني وهو لا يزال حيا . ولكنهم لم يفلحوا . ثم بعد اعلان الهدنة تحركت ركاب

---

(١) « بعد دخول الاتراك في الحرب في ك ٢ سنة ١٩١٥ ارسل الامام رسوله محمد علي شريف الى لحج ليستطلع مقاصد الانكليز . ولقد قابلت الرسول وكان السلطان علي (سلطان لحج وحليف الانكليز) حاضراً .قال الرسول ان الامام لا يخلف مع الترك وبينه وبينهم اتفاق على هدنة تستمر عشر سنين . مع انهم بعد ان دخلوا في الحرب لم يدفعوا مرتباته ومرتبات عشائر حاشد وبكيل .ثم قال ان الاتراك عرضوا على الامام ان ينسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها وكانوا ينسحبون من اليمن كله لو سمح الالمان بذلك . فقد اقنعوا الترك بان انسحابهم من اليمن يفتح الطريق للانكليز فيحتلون تلك البلاد » .

هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب »

الامام من السوده جنوباً ، وتحرك غيره كذلك يبغي الامامة . وكان في البلاد حزب يقاومه مقاومة شديدة فلجأ زعماؤه الى اعدائهم يستنهضونهم على الامام . هي عادة في العرب لم تتغير من عهد الامويين في الاندلس حتى اليوم . كتب اعداء الامام الى الملك حسين ، والى الادريسي ، وحتى الى الانكليز في عدن ، فبعثوا بوفد سافر رجاله سراً اليها عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ وقصدهم السفر الى الحجاز شاكين مستنجدين . ولكن الانكليز لم يأذنوا لهم بالمرور فرجعوا الى بلادهم . قد سمعت من مصادر شتى ما يدهش ويضحك من اخبار هذه الفتنة ، واغربها ان الامام يحيى رشى بعض الموظفين الكبار من الانكليز في عدن ليوقفوا اعداءَه اعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة .

قد استتب لحضرته الامر بعد ذلك فحكم بيد من حديد . وانتفع بمن تخلف من ضباط الترك فنظم قسماً من جيشه . وانتفع بنصراني نمساوي فأسس معمل الخرطوش . وانتفع بمذهب اجداده فحارب الادريسي وتغلب الزيود على الشوافع مراراً . الا وعنده المجاهدون في سبيل الله يحاربون غيرهم من المجاهدين كذلك في سبيل الله ان المرء ليأسف على امة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنة ، او بالحري تجعل المذهب وسيلة الى الاستيلاء والسيادة .

اني على يقين ان لو حكم الامام يحيى حكماً مدنياً بحتاً ، حكماً عربياً يمانياً لا حكماً زيدياً ، لتمكن من تحقيق مطامعه السياسية . فالشوافع اذ ذاك يدينون له طائعين راضين ، او انهم يأبون على الاقل ان يكونوا آلة مذهبية في يد اعدائه . اما اليوم فمهما قيل في عدله الجم ، وحلمه الشامل ، فالشوافع في حكمه غير راضين ، والذين في

الجيش منهم يحاربون الشوافع اخوانهـــم مكرهين . ومن المظالم التي يشكونها انه يجمع الزكاة والاعشار منهـم بالتضمين كما كانت تفعل الدولة العثمانيـة في الولايات . والعشّار مثل الجـــلاد ، مكروه في كل بلاد .

الامام يحيى

الضرائب والسلاح

المسموع واليقين – قوة الامام – عزلة اليمن – المذهب والجنسية والوحشية – الجند النظامي – المجاهدون – العرض يوم الجمعة – انواع المدافع والبنادق – معمل الخرطوش – قصر غمدان – غنى الامام – قصص الكنوز – حكاية السيد المقسومة الى ثلاثة اقسام، وحديثه – «الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام» – الضرائب – العشور – الزكاة – رسم الجمارك والقوافل – والجزية يدفعهااليهود – بيت المال – اليوم المنتظر – غليوم العرب .

كنت اسمع الناس في جدة يتكلمون عن الحكومة العربية في الحجاز فيذكرون اليمن كأنه ولاية من ولاياتها، وكأن الامـام، وهو العربي الصميم ـ هاك قصيدته في جريدة القبلة ـ يبغي الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره زعيماً . وسمعت بعض الناس في عدن يقولون ان بضع طائرات تبــدد صفوف الزيود وتشتتهم في الاودية والجبال، فتنسيهم الامـام، ووحدة الاسلام . ولكننا سمعنا كذلك كبارقواد الحضرة الامامية الشريفة، وشاهدنا جنودها النظامية. لا نظن ان عدناً تشاهد ما شاهدناه، وان الحجاز يسمع ما سمعناه، لان الحقيقة في البلدين مشوهة، او مطموسة، او مجهولة .

وهذا مما يؤسف له . فان ملوك العرب وامراءها ناؤون بعضهم عن بعض، وقلما يعرف بعضهم بعضاً معرفة اليقين . قـد يسمع احد المسافرين كلام مثل ابن الوزير، فيحمله الى الحجاز، فيظنه النـاس هناك كلام الحكومة . وقد يسمع احد رجال الامام المعتدلين فيتصور في كلامه صورة لآراء الامام ومقاصده . لا انكرُ ان شيئاً منهـــا

ينعكس في كلام الاثنين . ولكن الامام الكبير ، الكبير باستعداده وبطمحه ، لا يظهر في كلمة يقولها هو او يقولها احد رجاله .

هو الرجل العالم الحكيم المعتدل ـ قـــد سمعته يتكلم . ولكن اعماله ، وقد ادهشنا بعضها ، وبعضها راعنا ، تدل على علم يشوبه التعصب وعلى حكمة تضعفها العقيدة . اما قوته الحربية والسياسية فلا تنحصر بالزيود ، لانهم في من يحكم الثلث فقط [1] وانما هي في تلك العزلة التي توجبها العقيدة ، ويثبتها التاريخ ، وتعززها الجبال . اجل، ان قوة الامام يحيي لفي ثلاثة يقدسها اهل اليمن ،هي المذهب والوطنية والوحشية [2] وان في نفسه مواهب تتغذى بهذه العناصر الثلاث ولا تقف عندها . فهو وان كان التكتم طبعا فيه ، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان . وهو ، وان كان زيدياً ، يقبل هدية من الانكليز ، فيركب السيارة ، ويأذن بتصوير جيشه النظامي . وهو ، وان كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي يرغب في تلك الابهة العسكرية التي يسير بها الى المسجد ، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل اسبوع بعد صلاة الجمعة .

قد شاهدنا شراذم من الجند في ماويه واب ويريم وذمار . ولكننا في صنعاء شاهدنا يوم العرض فرقة كاملة تامة بعدتها واجزائها ، بنوبتها ، بسريتها ،بمشاتها ، بمدفعيتها . وكان بعض ضباط الترك يركبون البغال ، وقد علموا ابن اليمن ان يخطو خطوة الجندي الالماني الرسمية ،

(١) يحكم الامام نحو مليونين ونصف مليون من عرب اليمن منهم زهاء مليون ونصف مليون من السنيين الشوافع ، وعشروف الفاً من اليهود ، والباقي من الزيود .

(٢) اني استعمل هذه اللفظة ، وحشي ، كما يستعملها اهل اليمن فهم يقولون : اهل اليمن وحشيون . ويريدون بذلك انهم ينفرون من الغريب .

مشية الاوز Goose - step في حين ان الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغمات الموسيقى . وشاهدنا بين الجنود الزرقاء ثلة في ثياب صفراء ، قيل لنا انهـــم تلاميذ المدرسة الحربية ، ضباط المستقبل .

اما السلاح فعند الامام من البنادق انواعها [1] ، بعضهـا مجلوب وبعضها مغنوم ، وبعضها مشترى من رجال عسير . وان معمل الفشك في قصر غمدان [2] الذي يديره جرجي النمساوي يشتغل دائمـــا ، فينجز اربعة صناديق كل يوم ، في الصندوق الواحد الف فشكة [3] . وقد قيل لي انه يستطيع ان يجند ، خلا الجيش النظامي [4] ثلاثمئة الف من المجاهدين . على ان هذا القول لا يخلو من المبالغة .

في كل حال يحق للامـام ان يردد انشودة الانكليز الحربيـة الاستعمارية فيهتف قائلا : عندنا المدافع والرجال ، وعندنا فوق ذلك المال اني اشهد على الاولى والثانية شهادة عين ، وقد سمعت عن الثالثة اخباراً شبيهة باخبار الجن والكنوز المرصودة . فالامام غني ، غني جداً . عنده في كل بيت من بيوته في بير العزب خزنة من الذهب والفضة ، لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الامان . وعنده

(١) قيل ان عند الامام اربعمئة الف بندقية . ولكن ، منها ما هو غير صالح اليوم كالطليانية القديمة . وعنده مئتا مدفع متنوعة ، منها الجبلية والرشاشة . وقــد رأيت يوم العرض مدفعين من طراز الهاون .

(٢) قصر غمدان القديم دُرس والبناء القائم مكانه اليوم يدعى باسمه ويختصرونه في صنعاء فيقولون القصر . وفيه معمل الخرطوش ، والسكة ، والسجن .

(٣) هم يجلبون الرصاص ويستخرجون من ارضهم ملح البارود .

(٤) عدد الجيش النظامي خمسة الاف .

في شهاره ، في قنن الجبال هناك ، كنوز لا يعرف الطريق اليهـا سواه . واذا اكتُشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه . واذا ُعرف الحجر فلايستطيع ان يرفعه احد سواه ، لانه موضوع في شكل ٍ سرُه مفتاحهُ ، عند الامام . دعنا والكنوز .

انالضرائب والميزانية تشهد ان الحضرة الشريفة غنية ، غنية جداً ، لانها بمثل الاكليروس عند النصارى تأخذ ولا تعطي . في ايام الدولة كان اهل اليمن يدفعون الزكاة فقط ، وكانت العشائر معفاة منها . امـا اليوم فهم كلهم يترحمون على الاتراك . قد اسمعتك شكوى الجندي وشكوى الفلاح . واليك الان بحديث لرجـــل غريب ، كان يلبس فوق ردائه معطفاً افرنجياً من الجوخ ، اكل الدهر عليه وشرب وهو في رقاعه وطوله ووسعه وازراره البيضاء والسوداء آية في الزي والاختراع ، وكان الرجل يشد فوق هذا المعطف الجنبية اي الخنجر ويحمل بدل البندق العصا .

استوقفت هذه القيافة المبتكرة نظري فسألت الرجل عن مهنتـه فقال : مهنة الاجاويد . فقلت : زدني علماً فقال : نعطي ولا نأخذ . فاعتذرت واستغفرت فقال : تريدها بلغة الفقهاء . قلت : بلغـة ٍ من فضلك افهمها . فاجاب وهو يهز برأسه حياتنا هبة من الله ونحن نهبها الامام . لا نربح ولا نخسر . فقلت ولكن للهبة طرقاً واساليب . فقال ضاحكاً وهو يلطم صدره بيده : كلهـا عندي . انا اصلاً ، كما يقول الفقيه ـ وماذا يقول الفقيه ؟ ـ يقول : انا اصلاً واحدٌ امّارٌ بالسوء . اما انا فثلاثة وفي كلهـم الخير . ثلثي يا افندي شيخ ، وثلثي فـلاح ، وثلثي جندي ، والمجموع سيد .

ـــ نعم انا سيد ، وان كان السادة ينكرون ذلك علي . الثلث الاول

خدم الامام فجمع له الزكاة . جمعتها بهذه ـ وهز بيده العصا ـ جمعتها « ظَلَظ » (نقوداً) ، جمعتها مالاً (مواشي)، جمعتها اعشاراً، وحتى ثماراً .وما اكلت والله ثمرة مما جمعت ، ولا لطخت يدي بنقطة دم من شاة او حمامه . كلها للامام . والثلث الثاني دفع الزكاة . وكنت ادفعها مسروراً مستأنساً ، فـــلا ارجم العشّار ، ولا اخبىء الحمام . دفعت خيرات (كثيراً) وما بقي شيء بعد خمس سنين من الارض او المـال او الظلط . كلها للامام . والثلث الثالث يا افندي ، خاض من اجل الامام ساحات الوغى . وفيّ شاهدان ، هوذا الاول ، وذا الثاني ـ قال ذلك وهو يكشف عن صدره ورجله ليريني الجرحين ـ وما عدت الى بيتي وفي جيبي « بُخشة » [١] واحدة لا والله . خمسة ريالات، هذا الرسم .ولكن الريال فضة والعين لا ترى الفضة . نقبضها بخشات ست بُخشات كل يوم ـ والباقي للامام . وبما اني مجاهد كنت اشتري القات من كيسي ، هم يوزعون القات على « النظام » (العسكر النظامي) القات والبُر (الحنطة) . اما المجاهدون فلله امرهم وعلى الله ـ ست بخشات كل يوم . والظلط مخزون ، مخزون ليوم شديد ... نقول لحضرة الامــام : من شروط الامامة السخاء . فيقول لنا ، وهو العالم الاكبر: ومن شروط السخاء وضع الحقوق في موضعها ليس بالتبذير... الامام رجل كبير عظيم، ينظر الى المستقبل بعينين .له مقاصد كبيرة . ونحن كلنا للامام. نعطيه، نعطيه، ولا نأخذ منه الا ما شاء ان يتفضل به . الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام شاكرين . هذه هي الحقيقة

---

(١) الريال النمساوي يقسم الى ثمانين بخشة ، والبخشة نحاسة ضربت في صنعاء والليرة العثمانية تساوي تسعة ريالات نمساوية فتكون قيمة الريال احد عشر غرشاً تركياً وقيمة البخشة ثلاث بارات .

ينبئك بها هذا السيد . فقد صرت سيداً يا افندي لاني لا اخدم اليوم الامام بغير الكلام .

اما الحقيقة كلها فهي ان الشكوى من الضرائب عامة ، وقليل من ينظر اليها نظر هذا السيد الظريف . فالامام يأخذ من المسلم اعشار الارض عيناً . والخضرات اي الثمار – والقات منها – تثمن فيدفع اصحابها العشر نقــــداً . ثم زكاة المواشي والدواجـن و « القراش » (الدواب) وزكاة التجارة والمخازن ثم الزكاة الاصلية [1] ومنها الفطرة اي زكاة البدن تدفع في رمضان ، وزكاة الحلي حلي النساء من ذهب وفضة . وفوق ذلك كله اعانة الجهـاد عند الحاجة . اضف الى ذلك الرسم المفروض على اليهود وان كان قليـلًا . فاليهود في اليمن ذميون يدفعون الجزية ، وهي ثلاث درجات : ثلاثة ريالات في السنة على الغني ، وريالان على المتوسط ، وريال ونصف ريال على الفقير . كل هذه الضرائب تدعى في اليمن زكاة ، الا انهم يقسمون الزكاة قسمين ، ما يدفع عيناً وهو العشور ، وما يدفع نقداً .

كل ما يجمع من العشور والأموال يحفظ في بيت المال الذي له فروع في كل الأقضية ، وفي هذه الفروع اي المستودعات دائماً كثير من الحبوب والبن وغيرها من لوازم المعيشة ، التي لا يصرف شيء منها الا بامر من الأمام على ان من حسنات بيت المال انه يقرض المحتاجين مما فيه ويستوفي الدين منهم من الموسم الجديد دون فائدة ، وهي في اليمن ممنوعة اطلاقاً في التجارة وفي المعاملات كلها ، ممنوعة شرعاً وعملاً .

وما سوى القروض فلا ينفق من بيت المال الا القليل ، لان عنـد الامام مصدر خراج آخر هو الجمرك ورسم القوافل . فكل ما يدخل

(١) يبلغ مجموع الزكاة الاصلية خمسمئة الف ريال اي خمسين الف جنيه .

الى صنعاء من عدن او من الحديدة اليوم يدفع رسماً معلوماً . وكذلك كل جمل وكل دابة محملة . فمن هذه الرسوم ينفق الامام على حكومته . اما بيت المال فلا تمسه يد صالحة او اثيمة . كل ما فيه مدخور بعون الله ، وبفضل الامام والرهائن ، مدخور لليوم المنتظر . غليوم العرب الامام ، الماان العرب الزيود .

الشمائل القدسية

خادم لا يعجبه شيء – شهادته في الامام – رآه جالساً تحت الشجرة يقضي في الناس – دعوا الصغار يأتون الي – التناقض في سلوكه – القصد من الجلوس في الفلاة للناس – كيف يقضي الامام يومه – مكتبة من المخطوطات – كتاب الاكليل – « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه » – المدارس – العلماء والقراء والعامة – ذكاء الاولاد – حب العلم والحرب – الامام الامبراطور – الامام الطبيب – الكرامات والتشوير .

كان للرفيق قسطنطين خادم مَدَني وهو ولد مغربي نشأ في كنف الاشراف بمكة، فما اكتسب غير المشاكسة والمكابرة ، وما كان رأس ماله في الحياة غير رأس من حديد ولسان ذي حدين. استصحبه الرفيق، فكان اضحوكة الطريق ، واعجوبة الخطر والضيق . وكأن الاقدار تحسن الامثال ، فكان ينطبق على المدَني ومطيته – بغلة كانت او ناقة او حماراً – المثل المشهور . شبيه الشكل منجذب اليه . وكم وهلة روّعتنا واضحكتنا معاً ، والمطية فيها تضرب بقوائمها الهواء، والمدَني ينطح برأسه الارض ، ثم ينهض كالجن ضاحكاً ، وان غلظت في فمه اللعنات، ويروح راكباً فوق مطيته كأنه سيد السادات. ولد لا يعرف التوبة ، ولا يحسن من الكلام ومن الظنون الا اسوأها . فما رافق احداً الا شاكسه في الساعة الثانية بعد اللقاء ، وجاء يتحفنا بمعلوماته عنه ويحذرنا منه .

ولما دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا برؤية المدينة ، فراح يطوف فيها ،وعاد ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من عسل الالفاظ ، وعيناه

تبرقان ابتهاجاً . سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني ، ففضلها حتى على جدة . فقلت : افلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال: لا والله . فسألته عن السبب ، فاجاب : في مكة امي . وهذا ، اي حبه امه واحترامها ، هو بعد الامانة ، فضيلة الولد الوحيدة . قلت انه نقاد وقاد ، لا ينجو احد من لسانه ومن ناره ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام ، والله وامي ، وقبلت يده .

— أين رأيته ؟

— هو جالس الان في الساحة ، وحوله الرجال والنساء والاولاد . ولما رآني قال : حي الله الجاي . وقـام من كرسيه ، والله وامي ، واعطاني يده فقبلتها . وسألني عن اسمي وقال : امسلم انت ام مسيحي . فقلت : مسلم والحمدلله . فقال بارك الله فيك . هـو حياني ، والله وامي ، قبل ان حييته . ما رأيت احسن منه ، والطف منه رجـل متواضع كريم الاخلاق ــ والعدل ! وامي لا اظن ان في البلاد العربية من هو اعدل منه . هو جالس الآن في الساحـة يسمع شكاوي الناس . وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام ، يا امـام ، يا حضرة الامام . جاء وانا واقف جنبه ولد يبكي . فقال للناس : افسحوا له ، قربوه مني . دموعه افصح من الافصح فيكم واصدق . تعال يا بني . وامي ، ما اقول غير الصدق ... لا اظن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الأمام

وهذا اجمل ما فاه به المدني في الرحلة كلها . على اننا نضرب صفحاً عن رأيه وننظر في ما تضمنه حديثه من الحقائق . قد حياه الامـام عندما رآه قادماً وقام له . وهو يعرف انه خادمنا ، ولكنه يجهل ما اذا كان مسلماً او مسيحياً . هذا جميل منه . ولكننا تساءلنا مـا

السر يا ترى في ما تناقض من سلوكه . ينهض لخادمنا ويستقبلنا جالسا. والسر لا يزال سراً نزفه الى القارىء ونسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناهه .

اما الحقيقة الثانية فهي انه قدم شكوى الاولاد ، ومنهم الولد الباكي ، على شكاوي الرجال والنساء . وهذه بذاتها ثناء على الامام لا يقارنه في النطق ثناء . نذكرها اجلالاً ساكتين حائرين . ان امر هذا العربي اليماني الشريف لغريب ينسب المسيح الى الرجل المسحاء ، ويشبه المسيح في عطفه وحنانه ، دعوا الصغار يأتون اليّ . من فم مسلم زيدي تتساقط درر حبك ، وفي اليمن يُسمع صدى كلماتك ، ايها السيد الكبير الأوحد ، ايها الناصري العظيم . فما اصغر من يقيم الحدود ، ويحصر الحقيقة بالنصارى والزيود .

قد رأيت بعيني ما يثبت رواية الخادم مدني ، بل رأيت حضرة الامام وهو يجلس ساعة وساعتين كل يوم دون تأفف وتذمر ، فيسمع شكاوي الناس واعياً صابراً ، طلق المحيا ، عطوفاً شفيقاً ، فيقضي بينهم في بعضها ويحيل البعض الاخر على المحكمة الشرعية .

اما القصد من الجلوس في الفلاة فهو يدل على رغبة الامام الشديدة في تعميم العدل والانصاف . قد علمت ان الحجاب في بابه يردون احيانا من ينبغي ان تسمع دعواه ، او تُقدّم على دعوى سواه . وقد يرتشون ويظلون في مكمن من السر لا تصل اليه يد العدل والتأديب. فيجلس الامام حيث لا حاجب بينه وبين الناس . انما هي عادته كل يوم صباحاً عندما يخرج من قصره الى الديوان . يجلس في الساحة عند الباب ، او تحت الشجرة في الحوش ، ويقف وراءه جندي حاملا السيف ، وآخر الى جنبه حاملاً المظلة . فيفتتح الجلسة التي تستمر من

الساعة الى الساعتين . ثم يطوف في المدينة مصحوبا ببعض الموظفين والجنود وبمن شاء من الناس . ثم يصلي صلاة الظهر ويرجع الى القصر راكبا في موكب رسمي تتقدمه النوبة، وتعلو فيه اصوات الجنود وهم ينشدون الزامل. وبعد الغداء والقيلولة يجيء الى الديوان فيشتغل حتى صلاة المغرب ، وهو يأكل اثناء هذه المدة او بالحري « يخزن » القات ، بل يظل في بعض الاحايين حتى الساعة العاشرة مساء في الديوان قائما بما تقتضيه شؤون الامامة والرعية .

اما يوم الجمعة فيقضيه في الصلاة والمطالعة . وقد قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . على انه يغار عليها من عيون الناس وايديهم ، وخصوصاً الاجانب منهم . فقد أخبرت ـ واني اروي حديث المكتبة كما رويت حديث الكنوز ـ ان كتاب الاكليل (١) كاملاً بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية . وانه سيطبع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في صنعاء .

ان للامام يحيى رأياً في العلم والملك جميلًا . وهو من اكبر العلماء والمجتهدين، وعنده انه ينبغي ان يكون كذلك كل من تشرفه الامامة

(١) كتاب الاكيل للحسن بن احمد الهمداني .لم ارَ منه غير جزء واحد . وهو كتاب محافد اليمن ومساندها وزفياتها ومراثي حمير في عشرة اجزاء . الاول : اصول الانساب . الثاني : نسب ولد الهميع بن حمير . الثالث: فضائل قحطان . الرابع : السيرة القديمة الى عهد تبّع بن ابي كرب . الخامس : من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي النواس . السادس : في السيرة الاخيرة الى الاسلام . السابع : في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المنتحلة . الثامن :ذكر قصور حمير ومدائنها ودفائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدَن . التاسع : امثال وحكم باللسان الحميري . العاشر : في معارف همدان وحاشد وبكيل .

وترفعه الى سدة الملـــك . وهو القائـــل : قبّح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه . فاذا لم يكن هو اكبر العلماء اليوم فلا شك انــه ابعدهم نظراً ، واشدهم همة ، وادقهم اجتهاداً (١) وقد قال لي احـــد السادة انه خلاصة الخلاصة .

ولكنه في حبه العلم لا يحب على مــا يظهر تعميمه . لم نرَ مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مررنا بها . اما عذر الامام في ذلك فهو انه منذ تولى الحكم وهو واعداؤه في احتراب . فكيف له ان يهتم بالمدارس ؟ ولكن اهل اليمن يهتمون كل الاهتمام بالمساجد وبالصلاة وبالقات ، فلو انصفوا ، لو احسنوا الى انفسهم ، لساووا في الاقل بين التعليم والتديّن .

اما ما يتلقنه الاولاد في المساجد فينحصر بالقرآن واللغة والفقــه . لكن الفقه لا يدرسه هناك غالباً الا َمن هم من السادة. وليس الفقيــه دائماً فقيهاً . الفقيه هناك مثل معلم الاولاد عندنا وغالباً تكون مهنته ان يعلم القرآن واللغة فقط . ومن هـــذه الجهة يقسم اهل اليمن الى ثلاث طبقات ، العلماء ، والفقهاء ويدعون بالقراء ، والعامة . ويقسم العلماء قسمين ، قسم يتولى امر التعليم والارشاد واكثرهم من الفقهاء ، والقسم الثاني هم اهل الحل والعقد ، هم السادة وبيدهم مقاليد الاحكام الشرعية والسياسية والعسكرية . اما العامة فهم الذين يعلمهم القراء الكتاب وشيئاً من اللغة ، ويعلمهم السادة الطاعة والمحافظة على كل مــا

(١) الاجتهاد هو تفسير او تأويل او شرح بعض الاحكام في فروع لا في اصل الدين، تلك الفروع التي ليس لها في القرآن والسنة نصوص صريحة. والامام يحيى يخرج الاحكام على اصول اجتهاد الامام زيد بن علي بن زيد العابدين وفي بعض الاحايـــين على اصول الامام احمد بن حنبل .

فيه تعزيز سيادتهم في البلاد . لذلك تراهم يكرهون السيد ويسخرون من الفقيه .

حدثت ذات يوم ولداً ذكياً ، وما اكثر الذكاء في الاولاد هناك ولكنه كالارض الطيبة غير المزروعة ، فسألته ما اذا كان يشتهي السفر . فقال : عندنا والحمدلله ما يغنينا عنه . فقلت : ولكن الاسفار تفقه وتفكه . فقال : الذي عندنا يكفي لمعاشنا فقط . فسألته كيف يبذل الزيادة لو كانت . فاجاب : والله يا سيدي انا احب المدارس، كان عندنا ايام الاتراك مدارس منظمة يعلمون فيها الجغرافية والحساب . وكانوا يعطوننا الكتب والالواح والحبر والاقلام والدفاتر والطباشير — كل شيء ، وكله مجاناً . والله يا سيدي انا محزون . لا مدارس اليوم عندنا ولا معلم غير الفقيه . والفقيه سفيه ، لا يحب التعليم، ويأخذ مع ذلك ثمانية ريالات في الشهر ، وينام في المسجد والكتاب بيده . والورق والحبر والكتب ذهبت مع الاتراك . فلو كان عندي مال زائد كنت افتح مدرسة ، واعزل الفقيه ، واجلب الكتب والدفاتر والالواح والطباشير واوزعها على الاولاد مجاناً .

— ولماذا لا يفتح الامام المدارس ؟ الامام غني .

— بلى ، ولكنه ... سكت الولد ومد يده مقبوضة . ثم قال : فهمت ؟

— وهل عند الامام خيرات ؟

— خيرات ، خيرات .

— وهل هو عالم كبير كما يقولون ؟

— اشتهي ان يكون لي هذا القدر — وهو يضم اصابعه بعضها الى بعض — من علمه .

– اوَ لا تحب ان تكون جندياً ؟

– بلى ، ولكن بعد ان احصل العلم احمل البندق .

– وماذا ينفع العلم اذا كنت تظل راغبـــاً في الحرب وفي تقتيل اخوانك ؟

– صدقت ولكن حضرة الامام اعلم منا . فاذا قال : الحرب ، فالى الحرب . كلنا نحارب من اجل الامام . وهو اعلم الناس بكتاب الله والسنة وبما يجب على المسلمين . قد امرنا الله بالجهاد . . .

اعاد حديث الولد الى ذهني وجه الشبه بين هذا الشعب اليماني وذاك الشعب الذي قام في اوروبا منذ عشر سنوات يلبي امر امبراطوره بتأديب العالم وبسط السيادة الالمانية على اوروبا جمعاء . وكلمة الامام اليوم مثل كلمة ذاك الامبراطور بالامس ، تكاد تكون منزلة في نظر رعيته .

ان الامام يحيى اذن رب الحرب والاجتهاد ، رب السيف والقلم . هو الزعيم الاول والمعلم الاكبر في اليمن . وهو القاضي الشفيق العادل يجلس في الفلاة كي لا يقف احدٌ بينه وبين المظلوم . قد علمت ذلك ايها القارىء ولم تعلم بعد ان الحضرة الشريفة تمارس كذلك الطب . تداوي المريض بالايمان وتشفيه بالصلوات . اجل ان الامام هو الطبيب الاكبر بل هو الطبيب الاوحد في اليمن .

اخبرني احد الذين عالجهم انه كان مصابا بداء الصرع وكان في رأسه اهتزاز دائم ، فاخذ الحشائش التي وصفها له بعض البدو ، واكتوى ، واحتجم وظل في رأسه الصرع والاهتزاز . فجاء الى الامام ضارعاً مستشفيا . فلباه الامام . اخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيه . ثم تناول ورقة وكتب فيها آية من آياته الكريمة ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات . ثم اعطاه الكأس قائلاً : اشرب باسم الله . فشرب

المريض الماء. فقال الامام: اذهب في شأنك، قد شفيت باذن الله. وهذه قصة واحدة في الكرامات من عشر سمعتها .

امـــا التشوير [1] وحضرته القدسية تشوّر ايضاً ، فاليك بمثل منها . جاءَه ذات يوم بعض العربان شاكين ناقمين، فمنعهم عنه ، فوقفوا في الساحة تحت النافذة ينادون ويهددون الامام . فأطل حضرته عليهم وأنبهم فثارت في رأس واحد منهم النخوة بل النقمة العربية فاطلق بندقيته. فقال الامام : رصاصك بين عينيك قبل ان تغرب هذه الشمس: وعاد الى مجلسه ، الى فراش الملك مطمئنا . وراح العربان الى المدينة وهم يصيحون ويستنفرون . ولكن الذي اطلق بندقيته تخلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء يستريح والبندقية بين يديه ، وفمها تحت انفه . نعس الرجل ونام ، ثم تحرك حركة المستيقظ ، فأطلقت البندقية عرضاً ، فاصابته الرصاصة في جبينه ، بـــين عينيه ! وكان ذلك قبل غروب الشمس !

---

(١) التشوير ، مثل «العين» يصيبك منه الشر المقصود وفي هـذه الحادثة حـدد الامام الوقت والمكان، فكان ما شور بل تنبأ به . وقوة التشوير عند العرب تنحصر بالسادة الأشراف .

الجو ينجلي

فوائد السفر البطيء – حصون اهل اليمن الثلاثة – ضعف الزيود– القرن الثالث للهجرة – العزلة والتعليم – جو الظنون ينجلي – زيارة الامام – حديث خطير – خير اليمن في السلم لا في الحرب – « افتحوا البلاد للتجارة » – الانكليز – الادريسي – خطة الرفيق الحربية – نفور وزور – عدن والاجانب فيها –مندوب الامام الصنو صفي الاسلام احمد بن يحيى الكبسي – بداءة المفاوضات- رمضان – ابطاء السيد احمد – نحثه بالقوافي ونهجوه .

من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والاكتشاف والدرس . كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سؤالاً متجسماً ، سؤالاً حياً متحركاً ، اذا أذن لنا بالاستعارة. وحسبنا في بعض الامـــاكن ان نقف ساكتين صابرين ، فيجيئنا ولي الامام مادحاً ،ويجيئنا عدو الامام قادحاً. فضلاً عن الفلاحين والجنود، وقد عضهم البؤس والفقر فيجيؤننا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من المعلومات .فوصلنا الى صنعاء وعندنا « خيرات » من اخبار الامـام والزيود واليمن . قد دونت بعضها في الفصول السابقة ، واقول الآن تمهيداً وافادةً انها تتفرع الى فرعين ، الواحد فيه قوة الزيود الطبيعية، والثاني فيه ضعفهم الكامن في تلك القوة .

قد ذكرتُ ان الامام هو الزيود ، وان قوته وقوى تلك الامة تنحصر في ثلاثة – ثلاثة حصون – هي المذهب والوطنية والوحشية اي الاعتزال . اما المذهب فلا رأي لي فيه . واما الوطنية فـــالمدارس توسع نطاقها لتشمل في المستقبل القريب ربوع العرب كلهـــا .

ولكنما الوحشية ، اي النفور من الغريب والنزوع الى العزلة ، تؤثر في السائح اشد التأثير واسوأه. وهي مع ذلك اول الحصون المقضي عليها، لانها لا تقوى في هذه الايام على تيار العلم والتجارة، ذلك التيار الذي يقرب الشعوب بعضها من بعض .

اما ضعف الزيود ففي جهلهم الكثيف وتقهقرهم ، لا بالنسبة الى الاوروبيين بل بالنسبة الى المصريين والسوريين والعراقيين. كأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة قولاً وتقليداً تعود فجأة الى القرن الثالث للهجرة . لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا ادوية ، ولا اطباء ، ولا مستشفيات في اليمن . ان الامام لكل شيء . هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن . هو الاب الاكبر ولا اظن ان في اليمن من يقوم مقامه اليوم لو فاجأته لا سمح الله المنون . على انه ، وان حافظ كالاب الرؤوف على ارواح ابنائه ، وعلى صحتهم . فقد اهمل عقولهم اهمالاً محزناً مفجعاً . وهو ذا النقص في حكم الامام .

ان في العزلة قوة نأسف على دوامها . ولكننا نأسف كذلك على زوالها اذا كان التعليم الوطني لا يحل محلها ، فيكون فيه لاهل اليمن قوة جديدة تفوق ما فقدوه . ولا بد مع التعليم من تحسين الصلات وتمكينها بين الحضرة الأمامية وسائر ملوك العرب ، اضف الى ذلك تسهيل المواصلات التجارية بين اليمن وعدن ، وهي من الامور الجوهرية التي لا تتم الا بموالاة الانكليز والاتفاق معهم على ما فيه مصلحة البلاد .

اثنا عشر يوماً في الطريق واسبوع في الاسر انضجت هذه العقيدة. فدخلت صنعاء وقابلت الامام وهي متأصلة فيّ متمكنة مني ، بيد اني جئت اليمن ولا رأي لي في رجاله وفي شؤونه ، فلو الفيتهم

كالمصريين او كالعراقيين لكان حديثي مع الامام غير ما ستسمع ايها القارىء العزيز .

وهناك مسألة هي في نظر الامام اهم من المدارس ، واهم من المعاهدة مع ملك الحجاز ، واهم من سكك الحديد والامتيازات ، هي مسألة الحديدة . الحديدة ! لاينام الامام سعيداً مطمئناً ما دامت ، وهي ميناء صنعاء ، في يد الادريسي والانكليز . وهي قضية اليمن السياسية الكبرى اليوم .

لا تسل ايها القارىء كم كان سرورنا عظيماً عندما دخل احد الحجاب في اليوم السابع يبشرنا بقدوم الحضرة الشريفة جاء الامام يزورنا في منزلنا ، والحمدلله مُزيل الشكوك من قلوب عباده . دخل يحمل السيف وظل مَن رافقه من الحرس في الرواق . هو يلبس ثياباً قطنية من نسيج اليمن وليس ما يميزه عن احد السادة غير العمامة شكلاً لا لوناً وذؤابتها الطويلة . وسادات اليمن مثل اشراف الحجاز وتجاره يلبسون غالباً الاجربة والاحذية لا النعال . بادرنا انا والرفيق الى الباب نستقبل الزائر العظيم ، ودخلنا وراءه فأمر ان نجلس على الديوان وجلس هو امامي على كرسي ، وسيفه بين يديه .

اما الحديث فانقله من يوميتي وقد كتبت خلاصته تواً بعد المقابلة . فما اتكلت على الذاكرة آنئذ ولا أتكل عليها الآن . ليتيقن القارىء صدق الرواية .

قلت : لست باجنبي يا حضرة الامام ، بل انا منكم ، من العرب . ولا يُخدع من كان يجيد التفرس مثلكم . انظروا اليّ . ان قصتي كلها في وجهي . فاذا رأيتم ما يريبكم ، او ظننتم فيّ شيئاً من التلبيس ، فمروني فاسكت واعود غداً من حيث اتيت .

فاعتذر حضرته عن التأخر بما لديه من كثير الاشغال ، واعـــاد الكلمة التي وقفنا عندها في المقابلة الاولى عندما دخل الزائرون — هل عندكم كلام مضبوط ? فقلت : غير ما توجبه الوطنية العربية وتثبته المشاهدة لا نسمعكم ان شاء الله . ولكن قبـــل ان افيض بالكلام اؤكد لمولاي ان لا علاقة لي البتة مع الانكليز ، ولا مـع اميركا ، ولست امثل رسمياً الملك حسين. انا مندوب نفسي ، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي . اما قسطنطين فهو رفيقي بصفة ملازم في الجيش الحجازي . وهنا اعدت ما قلته في المقابـــلة الاولى عن الغرض من سياحتي ، ثم قلت : هذه بالاختصار خطتي في السفر . فاذا ساعدتموني في تحقيقها تعززون يا مولاي مصلحتكم . ما شك احد حتى الان في حبي للعرب واخلاصي لهم. ولا اظن مولاي وانا اصارحه كل المصارحة يشك في ما اقول .

فاعاد حضرته الاعتذار واكد لنا انه مطمئن البال لا يخامره شيء من الريب في حسن قصدنا . ثم قال : واسمعني الآن بيت القصيد . فقلت : هما بيتان . الاول ان تتفقوا والانكليز والثاني ان تعقدوا معاهدة مـــع ملك الحجاز . ينبغي لكم يا مولاي ان تفتحوا البلاد للتجارة وللسياح. لان اليمن لا ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم الخارجي اتصالاً حديثاً . فلو عقدتم مع الانكليز معاهدة تجارية ودية دون ان تمس استقلال اليمن بشيء او تقيد بشيء سيادتكم ، يكون لكم فيها الفائدة الكبرى . واذا علم الانكليز بانكم عقدتم معاهدة مع ملك الحجاز وانكم اتحـدتم لتعزيز شؤون البلدين ومصالحهـما المشتركة ، يتساهلون في بنود المعاهدة معكم رغبة في عقدهــا . اني اظن يا مولاي ان اتحادكم والحجاز يساعد في حل مشكل الحديدة على طريقة ترضيكم.

بل اعتقد ان الحديدة ، وهي ميناء صنعاء التاريخية والطبيعية ، تعاد اليكم اذا استعضتم عن السيف بالسياسة . استمروا في مفاوضتكم والانكليز واعقدوا المعاهدة او التحالف مع الملك حسين . ولا يخفى على مولاي انه اذا فتحتم بلادكم للتجارة ، وهي من اسس العمران ، فينبغي ان يكون لكم قوة تحافظون بها على استقلالكم وقوميتكم ، بل على سيادتكم التامة ، محافظتكم على الامن والسلم في البلاد . واما عزلتكم اليوم ، فاذا دامت ، تتلاشى فيها قوتكم . انكم تبذلون اموالكم وحياة رجالكم في الحروب الدائمة وفي الاستعدادات الحربية التي هي شر من الحرب . ان عندكم اليوم قوة مسلحة يا مولاي وهذا لا يكفي فالامة تحتاج الى ثياب تقيها البرد ، والى تعليم يقيها الجهل والمرض ، والى تجارة تقيها الفقر والشقاء . ولا تنال ذلك الا بالسلم وبالعلم . لست ممن يدعون الى حرب بين الشرق والغرب ويستبشرون بها ، بل من مبادئي وآمالي ان تتحسن العلائق بين الفريقين . واني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً تاماً . ولكني اغار عليها من الجهل يا مولاي كما اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . وما السبيل الى التخلص من الاثنين الا في اتحادنا ، في اتحاد ملوك العرب وامرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ، ولا يجحف باستقلالهم التاريخي . اضعفتم انفسكم بالحروب . قتلتم البلاد بالحروب . أفما حان لكم ان تجربوا طريقة اخرى ، طريقة السلم ، والتفاهم والتحالف ؟

كان الامام وهو مطرق يصغي لما اقول ، ويهز رأسه مبتسماً من حين الى حين ابتسامة فيها دهش وفيها استحسان . ولما وقفت عند هذا الحد رفع رأسه وقال : كلامك مضبوط . ولكن الادريسي حليف

الانكليز وعدونا ؛ يأخذ منهم المال والسلاح ويحاربنا بها . وهو بيننا وبين الحجاز المانع الحاجز .

– هو ينضم اليكم عندما تتحدون . لا يقف الضعيف عدواً بين قويين .

– ولكن الانكليز يساعدونه .

– الانكليز يا مولاي لا يستمرون على مساعدة الضعيف اذا استقوى خصمه الى حد ادعوكم اليه – الى حد فيه تتم المحالفة اليمانية الحجازية . فهم اذ ذاك يغيرون سياستهم او يعدلونها ويسعون في عقد معاهدة صداقة وتجارة معكم كلكم . واي ضرر يا ترى في اتحاد الحجاز واليمن وعسير، وفي عقد معاهدة ودية تجارية بينها وبين بريطانيا؟ اما الحديدة فتعاد اذ ذاك اليكم ويسترضي الانكليز صديقهم الادريسي بما فيه توسيع حدوده شمالاً او شرقاً في الجبال . لان بلاده اليوم ان هي الا اساكل متعددة . فهو لا يحتاج الى اسكلة اخرى وعنده اللُحيّة وميدي وجيزان والصليف، بل يحتاج الى ارض مخصبة وبلاد في الداخلية تساعد على تعمير الاساكل . اذا تم اتحادكم سهل اذ ذاك تحديد الحدود بين الاقطار الثلاثة .

فقال الامام: ناهي . نحن لا نعادي الانكليز بالرغم عن سياستهم . وقد عهدنا الى وكيلنا العرشي بعدن ان يفاوضهم ولكن لم تثمر المفاوضات حتى الآن . هم يماطلون ويسوفون ونحن صابرون .

– لا يسوفون اذا عقدت المعاهدة بينكم وبين الحجاز وعلموا بها .

وكان قد نفد صبر القسطنطين وهو يتحفز للكلام ، فقال مخاطباً الامام : بل يعيدون الحديدة اليكم . واذا ابوا فنحن اذ ذاك نضرب الادريسي من الشمال، وانتم تضربونه من الجنوب فتأخذون الحديدة

منه كرهاً وترغمونه فيضطر ان ينضم الى المحالفة .

لم يقف القسطنطين عند هذا الحد بالرغم عن اشارتي وتحذيري السابق بل امعن في موضوعه الخاص المحبوب، فشرع يخطب خطبة حربية ساد فيها صليل السلاح الحديث وهدير الطائرات . فخففت منها على بناء السلم الذي ابنيه . وقد تأثرت من لهجة الرفيق وتهوره ، واعدت بعدئذ عليه ما طالما قلته في مواقف شتى . وهو اني رسول سلم لا رسول حرب او ثورة في البلاد العربية . وقد جئتها مبشراً بالعلم والتمدين ، لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز .

لا . ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال ، نعم ، ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات، ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللباس وفي المسكن

ان حضرة الامام بعيد النظر ثاقب الفكرة ، طويل الاناة . فمهما كان من صياح امراء جيشه وتبجحهم ـ نشتهي عدن ـ دعنا نزحف على عدن فنأخذها بعشرة ايام ! ـ فهو يسير في جادة التؤدة والحصافة. وقد احسست بميل فيه الى السلم اكيد بالرغم من استعداداته الحربية كلها . على انه كما قلت طماح يحلم حلماً سياسياً باهراً ، ويعد لتحقيقه العدات، ويجمع الاموال، الذهب والفضة ، ويخزنها لذلك اليوم العظيم . وان لعدن مرقداً ولا شك في حلمه ، وعلماً في محيط علمه ، كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده ، ودرة في تاج اجداده . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات ، ولكنه لا يعلم على ما اظن ما للامم الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . سألت احد السادة العلماء :

في عدن كثير من الاجانب ، فكيف تعاملوهم اذا اخذتموها . فاجاب سيادته ، يدفعون مثل اليهود الجزية ! ولكن حضرة الامام ، وهـو الرفيع الجناب الوسيع الرحـاب » يسمع كلام السادة وامراء الجيش ويخرج الى الساحة ليسمع شكاوي الناس .

وكأنه سمعنا نئن ، سمع النفس الصامتة تشكو الاسر ، فأذن لنا في ختام تلك الجلسة بالتطواف والتنزه ، وكان يرسل الخيل احياناً لهذه الغاية فيرافقنا بعض الجنود حيث نشاء . بيد اننا ، وان كنا قد سررنا بهذا التعطف الامامي ، عدنا بعد بضعة ايام دون كلمـــة او اشارة من حضرته الى الريب المـؤلم والظنون . وقد كان ظني ، سامحني الله ، ان القسطنطين افسد علينا الامر بخطبته الحربية ، وافقدنا ما احرزناه من ثقة الامام . ومما زاد في الطين بلة ان الرفيق ، ونحن في تلك الحال ، شرع ينظم القصائد في مدح الحضرة الشريفة وفي مدح سيفها ومظلتها وقصورها الخ . فرحت انا ابحث في المدينـــة عن ترياق لسم الجزع والقنوط .

ان حياتنا في صنعاء في الايام العشرة الاولى كانت والحـــق يقال كادوار من الحمى يتخللها فترات نقهٍ قصيرات . ولم نشفَ الشفاء التام الا بعد ان زارنا ذات ليلة سيد من السادة يحمل رسالة كانت فيها والحمد لله خاتمة الكروب . دخل حضرة السيد يتقدمه جندي وجلس على الديوان بين الرفيقين يحدثنا بجمال صنعاء الذي يفوق بهاء القاهرة وجلال الاستانة ثم انتقل الى عاصمة بني عثمان فعرفنا انه كان نائباً من نواب اليمن في مجلس المبعوثان . ثم الى مصر التي اقام فيها مدة يعالج السياسة ويشم النسيم ثم الى جزيرة رودس فعرفنا انه كان فيها اسيراً . وبعد هـــذه السياحة التي اتحف السائحين باخبارها تمهيداً وتعريفاً ، رفع العمامة عن

رأسه واخرج من احدى طياتها رسالة من الحضرة الشريفة ، بل خطا اماميا ، انبأنا بان السيد احمد بن يحيى الكبسي هو مندوب تلك الحضرة الينا ومعتمدها في المفاوضات بشان المعاهدة . وقد خط الأمام الخط بيده ، بالحبر الأرجواني ، على طريقته الخاصة ، اي بضعة اسطر منها متناً والبقية على الهامش تحيط بالمتن كالهلال ، وختمه بالحبر الاحمر[1] اما نص خط الاعتماد فهاكه .

بسم الله الرحمن الرحيم

يحيى حميد الدين

(صورة الختم) امير المؤمنين

المتوكل على الله رب العالمين

الصنو صفي الاسلام احمد ابن يحيى الكبسي حرسه الله . كل المراجعات بيننا وبين الشريف ناصر ثم مع السيد محمد علوي السقاف[2] باطلاعكم . وقد وصل الاستاذ امين الريحاني ورفيقه قسطنطين ومعهما كتاب ملك الحجاز وظهر لنا من ظاهر كلام الاستاذ اراده انجاز الكلام والمراد منه البغية المقصودة والضالة المنشودة . فليكن منكم الكلام معهما لتقرر المسئلة على الوجه الكامل ابتداء وانتهاءً مع لوازمها الذاتية والخارجية اعانة لنا في ذلك . وليكن الكلام مكتوماً من الجميع عن كل احد . واعرضوا هذا عليهما . وقد اعلمنا الحاجب بالاذن لكم بالدخول اليهما والسلام عليكم .

في ٢٨ شعبان الوسيم ١٣٤٠

---

(١) خط الامام احمر في ايام الحرب اسود في ايام السلم .

(٢) والاثنان تقدمانا في المفاوضات بين الملك والأمام بخصوص المعاهدة .

ازال الخط كل ريب باننا مأسورون ، وتيقنا ان الحجّاب في الباب لا يأذنون بالدخول الينا الا من كان حاملاً براءة من الامام . فكان السيد احمد الكبسي اول من حظي بهذا الانعام ، وهو من سادات اليمن المستنيرين المتساهلين الراغبين في فتح كوات في سور العزلة يطل منها اليمن على العالم فيستنشق هواء المدنية دون ان يعرض بنفسه لرياحها الشديدة ومجاريها المضرة . والسيد احمد جسيم وسيم ، بطيء الحركة خفيف الظل ، فصيح الكلمة ، لطيف الاشارة . وله عين في الفتن السياسية ثاقبة اللحاظ ، وعينان في كشف الحقائق التي فيها خيره وخير الامام . اما سواها فهو لا يراها ولا يشتهي ان يراها .

جاءنا السيد احمد في اخر شعبان ، وكانت مفاوضاتنا واياه في رمضان فغيرنا من اجله نظام حياتنا ، وما تمكنا مع ذلك ان نباريه في النوم والابطاء ـ هذا وقت الفطور يا امين ، ثم وقت القات ، ثم السحور ، ثم وقت النوم ، ثم اوقات الصلاة ـ ظاهر وماشي؟[1] ولا وقت للمفاوضات . ولكني اجيئك الليلة ان شاء الله بعد جلسة القات . فيجيئنا بعد نصف الليل اوبين المدفعين مدفع السحور ومدفع الامساك . والسيد الكبسي سيد الزمان ، لا فرق عنده بين الشمس والزبرقان وكان يجيء حرسه الله والطيب ينتشر من اردانه ، وبقايا القات بين اسنانه ، فيسأل اولاً عن دواء للصداع ، ثم يقرأ بنداً واحداً من المعاهدة واذا جار على نفسه يقرأ بندين ، فتدق اذ ذاك الطبول مبشرة بمدفع الافطار ، فينهض ، السيد مسرعاً الى فروضه ، ولا نراه بعدئذ الا بعد ان تتعدد منا اليه الرسل والرسائل ، وفيها من قسطنطين القوافي المحبّلة ومني المخجلة . اجل قد عثرت وانا اراجع مذكراتي على ما يلي :

(١) ومعناها في اصطلاحهم افهمت ؟

في ١٦ رمضان الكريم

لقد هيّج في القسطنطين نهمة الى الشعر كانت راقدة . لطالما تاقت النفس وتشوقت العين الى شيء يخصني من ذاك العنوان الجليــــل في الدواوين : وقال يمدح فلاناً . ولكني بدأت في النظم وفي الهجاء معاً، فقلت وانا في صنعاء أهجو سيدي وصديقي السيد احمــــد بن يحيي الكبسي ،قدوة السادات الكرام ، وأحد اركان مولانا الامام .

صبرت على بطءٍ ومطلٍ من الكبسي
وقلت هو الصوم المطيل لذا الحبس
ولكن ظني قام يشكو جهالتي
ويكشف عما في الوعود من اللبس
فقلت له : مهلاً . فقال : وكيف ذا
وخرنوبه لا شيء فيه من الدبس

الامام يحيي

المخيَّم المنصور

تأثير الدين في الاخلاق – البروتستانتيون والكاثوليكيون – الزيود – امام الزيود – الضيافة العربية – رسم الامام – المخيم المنصور – الامام في المخيم – ثباته في العمل – حسن الادارة – كتاب المخيم – الاخصائيون – الامام الشاعر – قصيدة قسطنطين في هجو القات – هياج الشعراء في صنعاء – قصيدة الامام في مدح القات .

ان للدين تأثيراً في الاخلاق وفي العقول . فانك لتلقى امرءاً ذا فكر وقاد ، ونظر نقاد ، سليم الذوق والعقل ، كبير النفس والخلق في كل اعماله واقواله الا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه . فتلقاه اذ ذاك سخيف الفكر وان ضن به ، سقيم الذوق وان عالجه بالاعذار وحلو الكلام ، عقيم العقل وان اغرق في الاجتهاد ، قليل الثقة بالناس وان عظم ايمانه بالله .

خذ البروتستانتيين مثلًا . فانهم بوجه الاجمال اسلم عقيدة واوسع حرية في العقليات من الكاثوليكيين . ولكن في البروتستانتية مذاهب تضيق عندها جادة الحياة وتربدّ آفاق الطرب والسرور . فلا يُحب لذلك تقيها ، ولا يُرغب في مجلس عالمها ، وقلما يطاق قسيسها اذا كان من الطراز القديم . بينما ان رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ، وان ضيقوا على العقل وقيدوه ، لا يطفئون انوار اللهو والسرور في جادات الحيـــاة .

ان الزيود مثل بعض البروتستانت عقيدة وعملا . وان امامهم الاكبر في سلوكه الديني واحكامه المذهبية ليذكرني بذاك القسيس

المحترم الذي يحمل الانجيل في جيبه والعالم على منكبيه ، فيسعى ، والغم مخيم فوق حاجبيه ، في نشر كلمة الرب في الناس . الا ان الامام يختلف عنه في انه شرقي عربي يحسن الضيافة والمؤانسة ولا يحزن عليك اذا ظنك في ضلال ، ولا يقف مبشراً بين يديك .

انك لا تجد في ملوك العرب من هو اعلم من الامام يحيى في الاصول الثلاثة ، الدين والفقه واللغة ، ولا من هو اكبر اجتهاداً واغزر مادة منه . وهو اوسع نظراً من بعض ساداته العلماء الذين لا يزالون يعتقدون بسطحية الارض وله ذوق في الشعر والادب فيقضي بعض اوقاته في المطالعة : بل هو الشاعر الوحيد في حكام العرب جميعاً . قد اشرت الى قصيدته المشهورة التي يدعو فيها الى الوحدة الاسلامية وسيطلع القارىء على شيء من رقيق شعره ايضاً .

ولكني الآن مثبت ما قلته في تأثير الدين او بالحري المذهب في الانسان ليسمح لي حضرة الامام اذن ، وان كنت موضوع اكرامه وضيافته ، بالاشارة الى ما يعد نقصاً في الضيافة والاكرام . لم اكن لألمس هذا الموضوع بكلمة لولا انني احسب نفسي من العرب وانتسب مثله الى قحطان ، فاغار عليه وعلى شريف تقاليد العرب من انتقاد الغرباء جنساً وديناً في مثل هذه الاحوال . فهل يخل بقاعدة من قواعد الزيدية اذا آكل ضيفه الاجنبي ولو مرة واحدة ؟ أو ليس « الخبز والملح » من شروط الضيافة عندنا ؟ واذا كان الضيف عالماً تلذ له مطالعة الكتب ، وخصوصاً المخطوطات القديمة فهل يهدم حضرة الامام ركناً من اركان الدين اذا اطلعه على بعض ما عنده منها ؟

اما اذا استأذنه الضيف بأخذ رسمه فيأبى ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم زيود ، فلا اظنه على طول باعه في الاجتهاد يستطيع ان يوفق بين

الامرين . على ان آلة التصوير لم تنجح في ما اباح فلم تصح والأسفاه من صور الجيش صورة واحدة . وقد كنت في ما منع مصراً لاني كرهت ان اعود من صنعاء وليس لدي من طلعة الامام الشريفة غير الذكرى والخيال . فاستعنت بالقليل مما عندي من فن التصوير، واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه ، فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام .

العفو يا مولاي . اننا في زمن يحل الرسم فيه غالباً محل الكلام ، وله في احوال شتى المقام الاول . فضلاً عن ان الناس غربيين كانوا او شرقيين يرغبون في مشاهدة كبار الناس . فاذا حرموا ذلك فلا يحرمون ، بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجلات .

وان كاتباً يتشرف بمشاهدة كبير من ملوك العرب ليقصر في واجب التصوير ، كلمة ورسماً ، اذا كان لا يصفه في ديوانه . وديوان الامام يسمى « المخيم المنصور » وهو يشتغل فيه كل يوم كأحد كتابه بل اكثر من جميع كتابه ، ها هو جالس على الفراش الاسود فراش الملك وفراش الادارة ، في فمه « تخزينة » مضغة) من القات ، وعلى رأسه عرقية نسيجها اسود تتخلله خيوط صفراء ، وقد نزع سيفه وبردته وعمامته كما ينزع احد الغربيين القبعة و « الساكوه » تجرداً للعمل ، كأني به اميركي كبير يفوز في كل اعماله وهو جالس الى منضدته يملي على كاتب سره .

اجل ، ان الامام يحيى هو الملك العربي العامل بثبات ونشاط وادارة قلما تجدها في زملائه ، ديوانه بسيط ، قريب من الارض ، لا

رفعة ولا ترفع فيه ، يجلس متربعاً وامامه منضدة صغيرة وورق واقلام وحبر ، ويجلس الى يمينه كاتبه الاول القاضي عبدالله العَمْري ، والى يمين القاضي ثلاثة من الكتاب رؤوسهم فوق ايديهم ، وايديهم على ركابهم يكتبون . وقبالتهم من زملائهم ثلاثة آخرون ، وفي وسط الديوان جنديان جالسان امام الامام ، بيد احدهما الختم الامامي والمحبرة الحمراء يختم الرسائل والخطوط والاوامر التي تدفع اليه ، وبيد الثاني رزمة من القات ينتخب منها اوراقاً يقدمها لسيده الاكبر .

يُفتح الديوان في شهر رمضان مثلاً الساعة الثامنة مساء فيجيء جندي ببريد اليوم ، بعرائضه ورسائله وتقاريره ، ويضعها امام القاضي عبدالله موزع الاعمال ومديرها ، فيفضها فضيلته ، وهي كلها لفافات كالسواكير صغيرة وكبيرة ، ويقرأها واحدة واحدة ، ويأمر هذا الكاتب او ذاك بالجواب على ما يستطيع البت فيه دون الامام ، ثم يقدم له ما يستوجب النظر الامامي فيأمر بما يجب في شأنها ، وهو يطلع على ما يكتب في الديوان ويعلق عليه بحرف ه اثباتاً ، او بكلمة سلام ، وغالباً يؤرخه بخطه ، ويدفعه اذ ذاك الى مأمور الختم فيختمه ويرمّله ، ثم الى من يلفه لفافة ويكتب عليها اسم صاحبها .

الديوان الامامي او المخيم المنصور مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسلمون ويجلسون ويسكتون ، اما الرجل الوحيد المباح له الكلام والصياح فهو الحاجب في الباب ، وكثيراً ما كنا نسمع صوته ولا نرى وجهه — الوجع بكبدك قلت لك الامام مشغول ذا الحين ... ناهي ، ناهي .. جوابك تحت الختم ... البلا بروحك ظل مكانك ... اسكت يا يهودي ، البرص يعميك اسكت ... «أ» درله البندق يا آنسي .. على رأسي . حسن الحرازي يا سيدي — لينتظر —

هو يشتهي السفر ذا الحين لينتظر – يقول ان العامل . . . فيحتدم الامام غيظاً ويصيح مثل حاجبه وبه – ضربك الله بروحك اسكت . اخرج!

وعند الامام يحيى اخصائيون يستشيرهم ويستعين بهم . هـــذا السيد احمد الكبسي المقدم الاول العالم بشؤون العشائر واطماع رؤسائها وطغيانهم ، قد اقترب من الامام وفي فمه « تخزينة » عامرة ليهمس كلمة في اذنه . وهذا السيد محمد زبارة امير القصر ، قصر غمدان ، ومدير السكة والسجن فيه ، يطالع استدعاءً طوله ذراعان ملصوقة اوراقه بعضها ببعض . وهذا « جرجي » ابو الخرطوش يعيد النظر في رسوم قنابل رسمها ولا يستطيع صنعها في صنعاء قــد جثا امام فراش الملك ورائحة الخمر تفوح من فيه . – وكم يلزمنا من هـــذه ؟ فيجيبه الامام : الف – ومن هذه ؟ الفان . – ومن هـــذا المدفع الهاون ؟ – خمسمئة فقط . ثم يكتب الامام الطلب بيده ويدفعه الى راعي الختم فيختمه ويرمله .

وهوذا شيخ الاسلام يدخل محني الرأس فلا ينظر الى أحد ولا احد ينظر اليه ، فيتبوأ مجلسه في الزاوية ويأخذ كتاباً مخطوطاً يقلب في صفحاته ، فلا يتبرع برأي او يتلطف بكلمة الا نادراً . وهــذا ، قد انتصف الليل ، احد الموظفين في دائرة السلك « التلغراف » جاء برزمة من ثمار سلكه فيفضها القاضي عبدالله ويقدمها بعد ان يطالعها للامام . هكذا يستمر العمل الى ما بعد منتصف الليل والامام ثابت فيه جالس لا يتحرك ، الا انه يقف هنيهة من حين الى حين فيضع القلم جانباً ويتناول غصناً من القات بيده او يشرب جرعة من الماء ويتلمظ هاتفاً : والحمد لله .

بين الساعة الواحدة والثانية بعد منتصف الليل تدق الطبول ثم

يطلق مدفع السحور فينهض الكتاب واحداً بعد الآخر ويخرجون متسللين دون استئذان . اما الامام وكاتبه الاول فيثابران على العمل حتى الساعة الثانية بعدها . ذلك لان من مبادئه ان لا يؤجل الى الغد ما يستطيع انجازه في يومه . بل من قوانين الديوان ان لا يؤجل الى الغد شيء من امور اليوم ، فيجب ان ينظر في كل ما يرفع اليه في اليوم الواحد . لذلك ترى الامام وكاتبه الاول الاخيرَين غالباً في الخروج من الديوان .

والامام يحيى ، على ما هو فيه دائماً من اشغال الملك وهموم الامامة، يستطيع حتى في رمضان ان ينظم الشعر : أجل ، قد نظم قصيدة يدافع فيها عن القات ، وكان الداعي الى ذلك ما أوحي ذات يوم بوساطتي تحت شجرة الجوز الى الرفيق قسطنطين. قلت : يا قسطنطين ، قد طفحت صنعاء بخمر قصائدك ، وكلها مديح وتباريح، فما نجا احد، حتى ولا ولد الساقية ولا مدفع رمضان ، من قوافيك العسلية . فلماذا لا تغير النغمة والحنان ، وتستبدل القيثارة بالسندان ؟ اني مشتاق الى قصيدة هجو منك . فاجاب الرفيق : أتريد ان أهجوك ؟ فقلت : انك تفعل كل يوم وقد اصبح هجوك اياي مثل مدحك الامام مبتذلاً . فقال : أتريد ان أهجو الامام ونحن ضيوفه ؟ فقلت : اشتهي ان اسمعك هاجياً . اهجُ — اهجُ — ولم ادرِ اذ ذاك ما يستحق في تلك البلاد التخصيص والتفضيل . ولكني سمعت صوتاً في الجوزة يقول : لينظم قصيدة يهجو فيها القات .

فنهض الزعيم الشاعر في الحال وبادر الى القلم والسيكارة ، وجلس في البستان ، ثم قام يتمشى حول الشاذروان ، ومنه وثباً الى الديوان. وبعد ساعة في الزاوية والعرق يتصبب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة

بيده يكرمني ، يجربها فيّ على عادته :

القـــات فيه عجاب كما يقول الصحـاب
درّت به الشاة لمـا ان طاردتها الذئاب
ذاقتــــه فاستعذبته وسال منهـا اللعاب

الى ان قص القصة التي يروونها في اليمن . اضاع الراعي شاة من غنمه فراح يبحث عنها فرآها نائمة في فيء صخرة وورق القات في فمها . فجربه مثلها فاستعذبه :

و أمسى يجمع منــه حتى تملّى الجراب
مشى يحدث عنه وفي الحديث الصواب
فصدقوه وذاقــو ـــ هُ مثله واستطابوا

وبعد ان يصف كيفية استعماله في اليمن ويعدد الفضائل التي يروّنها فيه يضع القيثارة جانباً ويرفع المطرقة فوق السندان :

ما نفعــه انبئوني هل عند شخص جواب؟
جربته واختباري يجدي به الاسهاب
تنتاب جسم الفتى قشـــعريرة والتهاب
وفيه يفعل ما لا يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوخـــز والعذاب خراب
والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتياب
لا نفع في القات لكن فيه الشقا والعذاب
وتزهق النفس منــه والقلب والاعصاب
والجفن يزبل حتى يغشى العيون سحاب
وسؤ هضم وقبض منه يغيب الصواب

والراس يثقل وطئاً وبالدوار يصاب
ويعتري بعد هذا المفاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين ، لانه أشد من عرفت من الشعراء شغفاً به ، واسرعهم في نظمه. وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه القصيدة اقتراناً طبيعياً ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارخت ريباً القات للقتل باب
في ٣ رمضان سنة ١٣٤٠

اما النفحة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة الامام مشفوعة بكتاب نقول فيه اذا كان احد من شعراء صنعاء يبغي المعارضة والدفاع فليسرع قبل ان يرحل الشاعر. وكان اسبوع في عاصمة حمير والاذواء أضرمت فيه نار القوافي فوردت علينا المحروقات منها المهلكات. أجل ، قد جاء احد الشعراء وقصيدته في خنجره يشتهي دم الشاعر الكبير الذي تجاسر ان يذم القات وما ذمه ، وهوذا ذنبه الاكبر ، بغير المبتذلات الشعرية والركاكات : فاوقفه لحسن الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول. وبعد بضعة ايام جاءنا من المخيم المنصور ، من الامام نفسه ، كتاب في غلاف مختوم ، على غير العادة اليمانية « ففضضناه فاذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفي القصيدة خلال الدفاع عن القات من الغزل والدماثة والاتضاع. تلك روح الشاعر الحقيقي — ما يزيد الناظم رفعة ومجداً ، ويزيد المعجبين به حباً واعجاباً. وما اجمل العذر والتواضع في الكلمة التي ذيل القصيدة بها .

الامام يحيي

الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة الاشغال وتبلبل البال .

قال في مطلع القصيدة ، نفعنا الله بمزاياه الحميدة ، ان للقات مزايا لا يحصيها الاسهاب فيذكر عشراً منها فقط :

فللعيون جـــلاء للضعف منه ذهاب
وللثغور صبـــاغ زمردي يذاب
أحسن بثغر مليح له المـذاب رضاب
يا مـــا احيلاه ظلماً تشفى به الاحباب
وللنفـوس مريح والنشـاط انجذاب

. . .

ويشحذ الفكر حتى يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عن من له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر الاديب العالم في الامام فيقربه من كل من آثر الكتاب جليساً . الى ان قال :

اما الذي قاله قسطنطين فهـــو سراب
أليس من جاوز الحد اكله والشراب
يكون عرضة خسر ويعتريه اكتئاب
والاكل والشرب مالا بـه الكرام تعاب
وانما العيب اسراف منـه يبدو العجاب
هـذا الملفق يا قسطنطين منـــا جواب
يُهدي اليك عليـــه من الحيـــاء نقاب

لانه ليس كفؤاً للدر وهـو تراب
فاستر ملفق يحيى فالستر فيـه ثواب

ان في الابيات الاخيرة من الدمائة والخفة والتواضع ما يستحب في اصغر الشعراء واكبرهم . فكيف بـه في احد كبار الحكام والامراء ؟

الزيود واليهود

منزلنا بيت الصلاة – الوفد الفرنسي – ماء الوضوء – الصلوات والبصل – المتداوون – الخنازير النصارى – الحارس احمد يهتدي – السيد والهجري – ظلم السادة – حزام واليهودي – قاع اليهود – السيد محمد يعدد الواجبات – وكلها من اجل اليهود وسعادتهم – يدفعون الجزية راضين – الزيدي واليهودي في حب المال واحد – رسائل اهل اليمن – لا يستعملون الغلافات – حسابات وزير المالية – الصراحة والايجاز – الاسلوب التركي والاسلوب العربي .

هيوا على الصلاة ! هيوا على الفلاح ! وكان المؤمنون يجيئون الى منزلي يصلون . الحاجب والحارس والسيد والخادم والعشي والبستاني وولد الساقية الذي يغني الى جمله من الشروق الى الغروب: صدر البُنية بستان وانا زرعته ، كانوا كلهم يجيئون خاشعين فيتوضأون في بركة الشاذروان ، ويفرشون حولها في ظل شجرة الجوز بردة او احراماً ، ويصلون صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء . ما رأيت ولا عرفت اناساً يصلون مثل هؤلاء الزيود. وماقرأت في التاريخ عن اناس كانوا يصلون مثل هؤلاء الزيود. ولا اظن ان صلاة تصعد من فم بشر فتذهب كالهباء المنثور مثل صلوات هؤلاء الزيود .

كان في البيت ازاء بيتنا الوفد الفرنسي الذي وصل الى صنعاء يوم كنا هناك ، وكان احد الخدم يجيء ليأخذ لهم ماءً من الشاذروان ، فسألته مرة ، لمن الماء ؟ فقال : للخنازير النصارى . فقلت : أليس في بيتهم ماء للغسل ؟ فقال : هم يشتهون الماء للشرب . فقلت : أتسقونهم من هذا الماء ، من ماء الشاذروان ؟ فراح يحمل الجرة ويقول : خنازير

نصارى لا يستحقون احسن منه .

ويجيء هذا الزيدي فيتوضأ في البركة ثم يفرش بردته تحت اغصان الجوز ويتجاسر ان يخاطب « الرحمن الرحيم ... رب العالمين » ويضرع اليه ليهديه « الصراط المستقيم » . ويجيء البستاني كل يوم فيفتح بركة الشاذروان ليفرغها فتجري مياهها في بستان مهمل ، ارضه طيبة ، لم يزرع فيها الا شيء من البصل واللوبياء والبرسيم . كنت دائماً عندما أرى البستاني في عمله وفي صلاته آسف على الماء الغزير الذي يكفي ليروي حقلاً وسيعاً ولا يستخدم الا لري ثلم من البصل ، وعلى الصلوات الفائضة التي لا تروي في قلب الزيدي غير حقلٍ زرعه البغض والتعصب .

اي اخي الزيدي ، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض ؟ بغض العالم خارج اليمن ، وبغض الخنازير النصارى ، وبغض اليهود في بلادك ، حتى وبغض الشوافع اخوانك في الاسلام . ان صلواتك وماء الشاذروان سواء . وان في الاثنين بركات لو نشطت ، وعقلت ، وكنت كريماً . فلا تضع اذ ذاك ماء بلادك في الارض البور ، ولا تسق ماء وضوئك الناس ، ولا تسمع ربك كلمات التجديف في معرض الخشوع والابتهال .

جاءني ذات يوم الحارس احمد وفي عنقه ورم والتهاب . فدهنته بصبغة اليود مرتين فشفي وعاد يشكرني . فقلت يجب ان تشكر الخنازير النصارى لان هذا الدواء اختراعهم ، صُنع في بلادهم . فقال : جزاهم الله خيراً . والله يا امين — ورفع يده ورأسه الى السماء — عينه ترى كل شيء ورحمته تسع كل الناس . ثم جاء آخر وثالث ورابع يحملون اليّ الآلام من جرح او قرح . وكنت كل مرة اعالجهم اذكرهم بان شفاهم من الله ثم من اولئك الخنازير النصارى الذين اكتشفوا الادوية

والمخدرات — بعـــد ان تعلموا الطب من اجدادكم يا أجهل العرب — ليزيلوا الامراض ويخففوا الالام البشرية . وكانوا ، وقـد جاؤوني زيوداً، يرجعون مسلمين الى الديانة السمحاء التي يقول صاحبها: الانسان أخو الانسان أحب او كره .

ولما عاد خادم الفرنسيين ليأخذ الماء من الشاذروان انتهره الحارس احمد وهزّ له العصا . والله بالله اذا سقيتهم من الشاذروان اشكوك الى الامام . ما سررت بشيء في صنعاء سروري بعصا احمد وكلماته . فقد برهن الانقلاب السريع في نفسيته ونفسية اخوانه في الزيدية وفي الاوجاع على ان بذرة الصلاح التي زرعها الله في قلب كل انسان لا تزال طيبة في قلوبهم ، ولا تحتاج الا الى عمل او كلمة تحرك فيهـــا الحياة ، وترويها بماء المكرمات. اما التبعة في رقاد تلك البذرة وخمودها فعلى السادة الذين لا يرغبون في تعليم عامة الناس . واذا علموهم شيئاً فمزيجه الاكبر التعصب والطاعة للرؤساء .

لا يزال للسادة في اليمن حقوق في الارض وفي الرجـــال شبيهة بالحقوق التي كانت لسادة الاقطاع Feudal Lords في اوروبا الا ان لا عبودية فيهـــا . هم يقولون : هؤلاء قوم فلان . او القبيـــلة الفلانية هجرتنا [1] اي في حمايتنا ، وهذا الرجل هجري فمتى كانوا كذلك

(١) جاء في الحديث : من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها وامرأة يتزوجها فهجرته الى من هاجر اليه.
حاشية ثانية : جاء في حاشية الطبعة الاولى ان هذه الكلمة « من كانت هجرته الى الله ورسوله ... » من القرآن . فكتب يصلح الخطأ عالمان فاضلان الواحد فرنسي باريسي والثاني عربي نجفي . ولكنت وقفت عند شكر العالمين لو لم يكن اسلوب كليهما في النقد يستحق بل يستوجب هذا التعليق .

فالعلم بنظر ساداتهم قلما يفيد . اذكر كلمة قالها لي احد الجنود في الطريق وكان رفيقنا سيد يلبس حذاءً ضغط على رجله فنزعه ومشى حافياً . دنا الجندي من مطيتي وقال بصوت خافت : جميع الناس في اليمن ما عدا السادة فقراء . والسيد طماع كسلان متكبر . هذا المثل — واشار الى السيد قدامنا — وهذه اعمالهم — واشار الى حذاء السيد الذي كان يحمله — يحملني حذاءه .

وليس اليهود في مذهب الزيود وفي جهلهم اقل من النصارى استحقاقاً للكره والاحتقار . كان الجندي حزام ، أحد من مشى معي في المدينة حراسة واكراماً من قبل الامام ، يضرب بقبضة بندقيته كل يهودي يمر به . — ابعد — يا يهوده ضربك الله بروحك ! زادك الله عماوة يا يهوده ، اخلِ السبيل ! وقد لا يكون المسكين في الطريق . ولكن حزاما وهو شغف بحب اليهودي يراه على مسافة قادماً نحونا ماشياً بعيداً عنا فيبادر الى ملاقاته بالبندقية واللعنات ، وهو يظن انه

تابع حاشية صفحة ١٨٩

كتب العلامة المستشرق لويس ماسينيون كلمة عن « ملوك العرب » في مجلة العالم الاسلامي الفرنسية واردفها بهذه الحاشية : في الصفحة ١٦٨ من الجزء الاول نقل المؤلف كلمة قال انها من القرآن فيجب اصلاحها .

وكتب العالم النجفي مقالاً طويلاً بليغاً في عمود كامل من الجريدة فوبخني توبيخاً ، وشتمني شتماً ، وذمني ذماً لا يليق من مثله بمثلي لاني خلطت بين القرآن والحديث ولم اميز بينهما .

اني مذنب يا حضرة الجهبذ النقريس . ولكني اتعزى بان لي في الذنب شريكاً كبيراً من كبار العرب المسلمين فقد قال العلامة ماسينيون في حاشيته : ان الملك حسيناً نفسه يغلط احياناً في الايات ويخلط بين القرآن والحديث . راجع العدد ١٤٥ من جريدة القبلة والعدد ٤٧ صفحة ١١ من مجلة العالم الاسلامي .

يرضيني بذلك . ثم يبصق عليه ويهتف قائلا : لولا الامام . بلى ، لولا عدل الامام لكان يذبحه ذبحاً . فهددته مرة ، وكان قد نفد صبري عليه ، اني اشكوه الى حضرة الامام اذا استمر يفعل هذه الفعلات . فصار بعدئذٍ اذا رأى ذا السوالف قادماً في جهة من الطريق يسير هو في الجهة الاخرى . واذا مرّ به اتفاقاً يميل بوجهه ساكتاً صابراً كأنه لم يره .

وكان السيد محمد ، رفيقنا من ذمار الى صنعاء ، احد الاماجد الذين لا يتجاوز عددهم الستة المأذونين بزيارتنا ، الحائزين على ذا الانعام من حضرة الامام . فاستصحبته مرة الى قاع اليهود اي حيهم وهو مدينة معتزلة بينها وبين بير العزب ساحة كبيرة مثل ميدان الشرارة الكائن بين صنعاء وبير العزب . فزادني بذوي السوالف علماً وبالامام يحيى اعجاباً .

حدثني السيد محمد قال: يجب على اليهود يا امين ان يرسلوا السوالف كي لا نظنهم منا اذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبحهم خطأً. ويجب عليهم ان يركبوا الحمير فقط لانهم لم يتعودوا ركوب الخيل . والسلامة يا امين قبل الفخامة. ويجب عليهم ان يرفعوا الزخارف(١) من المراحيض ويجوز لهم المتاجرة بها فيزيد مالهم . ويجب عليهم في بناء بيوتهم ان يتجاوزوا الطابقين علواً فيسلم اليهودي اذا وقع عن سطحه . ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا اصلهم وقوميتهم يا امين فيذكروا دائماً شريعة النبي السمحاء وفضله عليهم . ويجب عليهم اذا شتمهم المسلم وبصق عليهم ان يشكوه حالاً الى الامام فيأمر المدعي بذبح فدان .

(١) هو من باب تسمية الشيء بضده . واليهود في صنعاء يرفعون « الزخارف » ويبيعونها من اصحاب الحمامات ، فيستخدمونها في الوقود .

فاذا ثبت الذنب دفع المسلم ثمن الفدان واخذ اليهودي نصفه . وكثيراً ما يتمنى اليهودي الشتيمة طمعاً بنصف الفدان . ولا نجيز لليهودي التملك . الارض لنا والبيت له مدة من السنين محدودة ، تسعة وتسعين سنة . ولا يخفي عليك ما في هذه الشريعة من التساهل والرحمة ، ويجيز لهم ان يصنعوا الخمر فيشربوا ، ولا يبيعوا غيرهم فيحزنوا . ويجيز لهم كذلك ان يعرضوا علينا بناتهم فنستخدمهم في بيوتنا ، وندخلهن حريمنا ونمنح من يستحق منهن نعمة الاسلام .

اما اليهود فهم راضون بهذه الحال . هم راضون شاكرون ما دامت الجزية وهي تافهة تخلصهم من التجنيد . وهم لا يزالون منذ عهد نجران الزاهر على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم الذي يلقنونه اولادهم باللغة العبرية القديمـــة . فلم يدخل عليهم من جديد ، او بالحري من غريب ، غير لقب حاخامهم الاكبر الذي منحه اياه الترك ، فهو يدعى حاخام باشا .

قلت انه لم يكن احد ليدخل منزلنا الا باذن من الامام . ولكن يهودياً كنت قد اشتريت منه في السوق بعض النقود الحميَرية واوصيته على غيرها ادهشني ذات يوم بوقوفه فجأة امامي في الديوان . فظننت ان الحارس حزاماً نائم او غائب ، والا فكيف يأذن له بالدخول . سألت اليهودي فقال : هو في الباب . فقلت : ألم يرك داخلاً ؟ فاجاب بالايجاب وسكت . فاشتريت منـه ما اشتريت ودفعت المـــال . مشى اليهودي مسروراً والمـــال في جيبه حتى وصل الى الباب فاوقف هناك ، فرأيت حزاماً ويده على تلابيبه والبندق مرفوع باليد الاخرى ، ورأيت اليهودي ويده في جيبه يخرجها ويقاسم الزيدي ما قبضه مني من المال . الا اني لم اتحقق مصدر الخلل . ولولا

علمي بتفوق الزيـــود واحتقارهم اليهود لقلت ان ذا السوالف رشى ابا النيل ليأذن له بالدخول والمتاجرة ، وقد يكون ذلك ، ثم رفض ان يدفع ما وعد به ، فقبض ابو النيل على عنقه وابتز منه ليس نصف الربح بل نصف المال كله . وقد يكون الزيدي في تغاضيه عندما دخـــل اليهودي ، نصب له الشرك الذي وقع بعدئذٍ فيه . كأنه قال لنفسه : القنص للقناص . ليربح من ضيف الامام وانا اربح منه . ان بيت الاول من زجاج مصبوغ ، وبيت الثاني من زجاج بسيط . الواحد يحب المال ، والثاني يشتهي «الظلط »وهل في حب المال ما يستنكر ومولانا سيد المحبين؟وهل في الاقتصاد ما يستقبح وهو في علم الاقتصاد الاستاذ الأكبر ؟

اظن ان الامام يحترم اليهود ويحميهم ويقيم فيهم العدل فيأمر بذبح الفدان اذا اهينوا ، لانهم المثال الحي لما هو عنده من قواعد الحياة في مقام الايمان . المال ، المال ، والاقتصاد بالمال . فـاذا كان اليهود في عهده آمنين مطمئنين وفي تجارتهم ناجحين ، فالزيود وقد حرمهم «الظلط» امسوا من امهر الاقتصاديين والناس على دين ملوكهم .

ان اول مـــا شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن طريقتهم في المراسلة ورفع العرائض . فلم ادرِ ما تلـــك القصاصات المكردسة التي رأيتها لاول مرة امام منضدة امير الجيش في ماويه الا بعد ان وصلنا منه ، ونحن في إبْ ، برقية مكتوبة في ادارة السلك على شقة من « كابون » الدولة العلية . ثم وصلنا ونحن في زمار من عامـل اب برقية اخرى مكتوبة على قصاصة من معروض بالتركيـة مرفوع الى جناب قــائمقامية حراز العالي . فالامام يحيى الذي غنم من الترك المـــدافع والسلاح احتفظ بمـا تركوه من الاوراق والدفاتر

والكابونات والمعاريض ولم يأمر بتقطيعها وباستخدامها في ادارة السلك فقط بل في دوائر الحكومة كلها حتى وفي المخيم المنصور .

انه ليندر استعمال الغلاف في اليمن الا في المراسلات الرسمية الخارجية . اما في البلاد وبين اهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف . يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكاره فتفكها فاذا هي رسالة من حضرة الامام وقد تكون بخطه الشريف ، فتقرأها ثم تنظر فيما لها من هامش فتقطعه وتجاوب عليه ، وتلف الجواب سيكارة وتعيدها مع الرسول . واذا اسرفت في الورق واضعت مقدار ختم منه دون ان تسوّده توبخ على ذلك ، وقد تعزل اذا كنت موظفاً في الحكومة . اما اذا جاءك كتاب في غلاف فتشقه وتستعمل ظهره للمراسلة واذا كانت الرسالة من صنوٍ وهي على قدر بطاقة الزيارة تعيدها اليه والجواب في المكان الابيض منها ، سطراً كنعلة الفرس او سطرين كخط المابين .

ومن المستغرب المستعذب ان بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظماً في بيت او بيتين من الشعر . ومما قرأته من هذه الشكايات سطران من انسان يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك . فهو يلبط وينهق كثيراً في الليل . فصدر الامر الى صاحب الحمار ان يقيده ويشكمه بين مدفعي السحور والافطار .

جاء السيد علي زباره يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم كمدير التموين والضيافة . فاغتنم فرصة وجوده عندنا ليراجع ما تكردس على رأسه من الرسائل والحسابات . فنزع عمامته البيضاء وشرع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة ، فيقطع القسم الابيض

منها ويعيده الى مكانه ثم يمزق الباقي . ومن الرسائل التي اطلعنا عليها ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيت ارجو ريالاً في ريال في ريال
فسمن والحبوب وما سواها لشهر الصوم فالمصروف غالي

ثم اطلعنا على قصاصة من حضرة الامام يأمره بدفع مئتي ريال الى احد العمال ، فقلت له . أتمزق هذه ايضاً ؟ فكان جوابه ان مزقها وهو يقول : اذا دفعت الفي ريال لا اسأل عنها . فقلت : وقد ينسى الامام فيسألك ان تبرز الامر فاجاب قائلاً : لا ينسى ولا يسأل . فعجبت لهذه الصلة ، صلة الثقة والامانة ، النادرة في حكومات المتمدنين ، بين الحاكم وناظر ماليته .

تلك اللفافات وفيها الشكايات نظماً ونثراً ، اني لا ازال اذكر منها رسالة جاءتني يوم سفرنا من احد الحراس يقول فيها ، بعد ان رفعني الى الجوزاء وتركني هناك ، ان القات في شهر الصوم غال جداً وان الله لا يخيب امله « بامير المحسنين العزيز امين » . وما اغرب ما ترويه هذه الرسائل واحزن ما تفشيه ، وفيها شكوى اليوم وراء شكوى البارح ، وراء الاثنين او على هامشها بياض يسوده الغد بما قد يكون ابعد غرابة واشد حزناً .

ولفضيلة الاقتصاد بالورق في اليمن شقيقة اجمل منها ، الا وهي الاقتصاد بالكلام . انعم بتلك الصراحة والايجاز ، وبما يوجبه الايجاز من اهمال الالقاب وعبارات التبجيل . اوَليست الصراحة والايجاز والخطابة البتراء من مزايا العرب المشهورة ؟ ولكنهم في ما دخل

من بـلادهم في حكم الاتراك كالحجاز مثـــلًا وبعض نواحي اليمن وعسير ، امسوا اتراكاً في مـــا يكتبون ، وفي الكثير مما يقولون ويفعلون .

اما في اليمن الاعلى ، في غير الرسائل الرسمية ، فـــلا يزالون من العرب العرباء . الا انهم اذا كتبوا الى امير او حاكم او سيد خارج اليمن فلا الترك عندئذ ولا العجم يفوقونهم في فخامة الالفاظ وضخامة الالقاب . وهاك مثالاً من تباجيلهم . اذا كان المخاطب امـيراً فالى : قدوة الامراء الكرام ، وعمدة النجباء الفخام ، عالي المجد والمقام ،فخر العرب والاسلام . . . . واذا كان اماماً فالى : خلاصة الاطهار الامجاد ، وروضة المجد الرفيع العماد ، قرة العين والكمال ، عنوان الاعتبار والجلال ، الركن الاسند والسند المستند . . . واذا كان سيداً بسيطـاً فالى : ذي الاخلاق الزكية ، والشمائل المرضية ، الهمام المقدام ،الرفيع المقام ، التقي النقي . . .

على انه يسر كل من يكبر في العرب شمائل الاجـداد ان يرى في خطوط الامام الى رعاياه وفي عرائضهم اليه تلك الصراحة وذاك الايجاز اللذين امتازت بهما قديماً خطب الامراء ورسائل الادباء . وعندي فوق ما اشرت اليه نموذج باهر في رسالة من صديقي السيد احمد الكبسي على قصاصة من الورق صغيرة . قال حجب الله عليه : لا عتب على صديقكم فالليلة هذه تتم الامور والسفر يـــوم الاثنين ان شاء الله . وسأحضر اليكم الساعة السابعة غداً .

لكن الامور لم تـــتم تلك الليلة . ولا السفر كان يوم الاثنين ، ولا شرّف الصديق في الساعة السابعـة او العاشرة من ذاك الغـد . الا انـــه جاءنا في اليـــوم التالي والطيب ينتشر من اردانـه .

و « التخزينة » بين اسنانه ، و « ظاهر وماشي » تتمشى في بيانه ، فقال : انا مسرور لان حضرة الامام اذن بان تتعشوا عندي . فالى مساء الغد يا امين الى مساء الغد يا قسطنطين . وراح يشكو الصداع ويداويه بالقات وبالآيات .

المسئلة السياسية الكبرى

كابوس الحديدة – وعد من وعود الحرب – الترك والامام – الترك والعرب بعد الهدنة – تسليم الترك في لحج – اخراجهم من الحديدة – احتلالها – احتجاج الامام – جواب الانكليز ووعدهم – تسليم الحديدة للادريسي – سياسة الانكليز العربية – المفاوضات – بعثة الكرنل جاكوب – عرب الصحراء يوقفونها في باجل – الانكليز في الاسر – الامام يسعى في انقاذهم – رجوع البعثة وفشلها – الامام يحمل على النواحي المحمية – احتلال الضالع وغيرها مما في حماية الانكليز – المفاوضات – الهدايا – الدسائس – التسويف والمماطلة – شروط الامام – مقاصد الانكليز .

الحديدة كابوس الانكليز في عدن وكابوس الامام في صنعاء. هذا يبغيها ولا ينفك يطالب بها، واولئك ، وقد وهبوها صديقهم الادريسي يودون لو كان بامكانهم ان يهبوها كذلك الامام . وهناك وعد من وعود الحرب وبعدها يزيد العقدة شدة في دار الاعتماد بعدن . ما العمل؟ ايمكننا ان نقسم المدينة بين الامامين ، الامام الزيدي في اليمن والامام الشافعي في عسير ، فننجو من الكابوس . أو يستطيع الامام الاكبر ان يضغط على الانكليز في جنوب اليمن بفيلق من زيوده فيضطرهم ان يسلموا بما يطلبه منهم في تهامه ؟ انما هي مسئلة المسائل .

الحديدة من المدن العربية المشهورة. كانت عهد الاتراك وقبله ميناء اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عامرة ، وعدد سكانها يتجاوز المئة الف. وكان الترك ينزلون فيها العساكر لاخضاع اهل اليمن فمدوا منها الاسلاك البرقية الى اعالي الجبال ومنحوا شركة فرنسية امتيازاً بسكة حديد تمد من الحديدة الى مناخة فصنعاء، فباشرت الشركة

العمل بما ارسلته من مواد البناء ، فنشبت نار الحرب في اوروبا فقضت على المشروع وذهبت تلك المواد نهب العربان .

وقد كانت الحديدة اثناء الحرب العظمى لا تزال في يد الاتراك الذين حاربهم اليمانيون اربعين سنة ، فانتزعوا منهم القسم الاكبر مما احتلوه من البلاد . ولكنهم في تلك الفترة والوا اعداءهم وهم اخوانهم في الاسلام ، فحافظ الامام على المعاهدة التي عقدها معه عزت باشا والتي تقدم الكلام عليها في فصل سابق وظل معتزلا السياسة والحكم مقيماً في جبال شهاره . كان يومئذٍ محمود نديم والي اليمن ، وعلي سعيد باشا قائد الجيوش المحتلة ، وفي حوزتهما البلاد كلها من لحج حتى صنعاء ومن اللُحيّة على الساحل حتى المخا . اما العرب من شوافع وزيود فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم يومئذٍ المال .

ولما أعلنت الهدنة سعت بريطانيا باسم الاحلاف في اخراج الاتراك من النواحي التي كانت لا تزال في حكمهم في اليمن الاسفل غرباً وجنوباً . فسلموا في بعضها كلحج دون قتال ، وابوا في الحديدة وملحقاتها الا الدفاع . فجاءت اولا الاوامر من عدن بالتسليم ثم المدرعات لتنفيذها ، فضربت الحديدة البلد الامن غير المحصن ، فدمرت قسماً منها وقتلت مئات من اهلها ، فهرب اكثر الباقين لاجئين الى الجبال .

سلمت الحامية واحتل الانكليز المدينة . وكان قد دخل الامام يحيى وقتئذٍ الى صنعاء وسلمه الوالي محمود نديم [1] زمام الاحكام في

---

(١) لم يكن في صنعاء يومئذ غير ثلاثة طوابير، وكانوا هناك وقد قطع الادريسي وملك الحجاز وسلطان نجد الاتصال بينهم وبين الشام ، في شبه حصار ازدادت شدته في اواخر الحرب .

اليمن كله . او بالحري في ما كان في حكم الترك والحديدة طبعاً منها . فكتب الى المعتمد الانكليزي في عدن يحتج على ذاك الاحتلال فجاءه الجواب يقول : اننا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الامن والنظام وسنعيدها قريباً اليكم . وهذا الوعد هو حجة الامام السياسية . امـــا حجته الشرعية فهي في انتزاعه الحكم من الاتراك وكل ما كان تحت ذلـك الحكم من البلاد أضف الى ذلك حججاً اخرى تاريخية وجغرافية تثبت حقه وتؤيد دعواه .

ولكن الانكليز رغم وعدهم المذكور سلموا المدينة الى صديقهـــم الادريسي الذي كانوا يمدونــه وهو حليفهم بالمـال والسلاح ليحارب الاتراك ، عملاً بمعاهدة بينه وبينهم شبيهة اساساً بمعاهداتهم الاخرى وامراء العرب الذين نصروا الاحلاف . اننا في استقرائنا الحقيقة نسجلها كلها بعد ان نثبتها ولا نخفي جزءاً واحداً منها . والحقيقة كلها هي ان ملوكنا وامراءنا الذين نصروا يومئذٍ الاحلاف نصروهم لاغراض خاصة ، اغتنموا تلك الفرصة لتحقيقها . فكان الواحد منهم اذا ضرب الاتراك ضربة يذخر من قواه وعدته ليضرب اخاه العربي بعدئـذ ضربتين وثلاثاً . اجل ، قـــد استخدم الملك حسين مال الانكليز وسلاحهم على خصمه ابن سعود فكان من الخاسرين . وحمل ابن سعود على ابن الرشيد فكان من الفائزين . وظل السيد الادريسي بعد الهدنة وبمعاونة الانكليز يحارب خصمه الامام دون قصد يُشكر او نتيجـة تذكر .

لا نلوم الانكليز اذا آثروا في سياستهم وصداقتهم من ساعد الحلفاء في تلك البقعة من الارض على من ظـــل معتزلاً . ولا نلومهـم في تفضيل الادريسي على الامام ، وابن سعود على الادريسي ، والملك حسين

على ابن سعود . فقد كانت المساعدة درجات وكان التفضيل كذلك . ولكننا نلومهم لانهم استمروا بعد الهدنة في تلك السياسة المشؤومة التي كان من نتيجتها ان اتسعت الثُلَم بين امراء العرب المتخاصمين . وظلوا بالرغم من معاهدات هي وضعاً تختص بالحرب العظمى ، يمدون الادريسي بالمال والسلاح ليحارب الامام [1] فاذا تساهلنا في تفسير هذه السياسة وتأويلها وانتحلنا لهم الاعذار ، فاننا لا نستطيع الدفاع عن سياستهم الخرقاء في قضية الحديدة .

قد أبرّوا ببعض وعدهم فخرجوا عسكرياً من تلك المدينة ولكنهم سلموها الى الادريسي واقاموا فيها من قبلهم وكيلاً سياسياً . فضلاً عن انهم بهذا العمل الذي قيدوا انفسهم به وجعلوا الحديدة كابوساً عليهم قد ظلموا اهل اليمن الأعلى فسدّوا عليهم منافذ البحر وسلبوا صنعاء العاصمة ميناءها الطبيعي التاريخي .

---

(١) كان الكرنل جاكوب المعاون الاول في دار الاعتماد بعدن عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة البريطانية والسيد الادريسي بل هو الذي عقد تلك المعاهدة مع السيد في جيزان . وقد ذكر ذلك في كتابه ودافع عن حكومته مستشهداً بالمادة الرابعة من المعاهدة التي تقول : ان حكومة بريطانيا العظمى تتعهد بان تحمي سواحل بلاد الادريسي وجزرها من التعديات الخارجية كلها دون ان تتدخل في شؤونه واستقلاله. وقد فسر الكرنل جاكوب مادته بان لا ذكر للامام فيها وانه لم يكن للادريسي من عدو على السواحل يومئذ غير الترك . هذه حجته في ان الحكومة لم تساعد الادريسي على الامام . وحجتنا في ما يفسد حجته هي واقعة الحال بالذات التي يثبتها هو نفسه في كتابه . فقد جاء في كلامه على الادريسي والحديدة ما يلي : قد استنجد (الادريسي) بحاشد وبكيل وسألنا ان نقدم المال لتجنيدهم . ثم يقول بان الادريسي جند بعض اولئك العرب فاخذوا ماله (وهل هو غير مال الانكليز ؟) وحاربوا قليلاً معه ثم عادوا الى بلادهم .

فامست في شبه حصارٍ لا اتصال لها بالعالم الا عن طريق الانكليز في عدن .

لم تنقطع المفاوضات اثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعاء وقد اثمرت ثمرة استحالت بعدئذ حنظلاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الاول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته ان ترسل بعثة سياسية الى الامام يحيى وزين الامر لحضرته فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدة في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد صنعاء . بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيبين وترجمانين وكاتب يصحبها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير من الحديدة كأنها قافلة تجارة دون ان تستعلم وتتثبت احوال البلاد التي ستمر بها .

ان في تهامة بين الحديدة وعُبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة ببأسها وسطوتها . هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلاً في تلك الناحية . عربها من السنيين الشوافع لا يميلون الى الامام ولا يحبون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لانهم ضربوا الحديدة ودمروها وقتلوا مئات من اهلها ، وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم . وكان القنصل الانكليزي في الحديدة يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز انفسهم رجل احمق متصلف ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين به من العساكر الادريسية . فشجعها على السير وطمأنها .

خرجت البعثة من الحديدة تجر اذيالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلالة الملك جورج الخامس الى حضرة الامام . وكانت الحملة

ومعها الهدا ياالثمينة تقدمتها لتجس الارض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها اعضاء البعثة مطمئنين آمنين، فمرت بباجل دون ان يعترضها احد واجتازت عشرين ميلاً منها الى عُبال فباتت تلك الليلة هناك، فتقدمت البعثة تتبعها ودخلت في الشرك الذي نُصب لها .

وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى باجل فرحب عرب القحراء بهم وانزلوهم ضيوفاً عليهم في بيت كان الامر فيه بعدئذ لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي،بل لسادات القحراء ومشايخها . وقد روى الكرنل في كتابه خبر ذاك الاسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق .

قد جاء في كتاب الكرنل جاكوب ان الامام يحيى ارسل الى باجل حرساً مؤلفاً من مئة جندي وثلاثة عشر خيالاً ليلاقي البعثة ويرافقها الى صنعاء . ثم ارسل محمود نديم ومعه اربعة الاف ليرة عثمانية لينقذ البعثة ويمكنها من استئناف السير اليه «وجاء مندوب سياسي الى الحديدة يعرض باسم حكومة بريطانيا العظمى خمسين الف ليرة انكليزية على مشايخ القحراء ليطلقوا سراح المأسورين ». ثم تدخل السيد الادريسي في الامر فبعث احد رجاله الى باجل فلم يفز بغير ما فاز به من تقدمه من رسل الامام والانكليز . ثم طارت طائرة من عدن الى باجل قصد الارهاب والترويع وعادت دون نتيجة تذكر .

لم يلن عود القُحراء ولم يزعزع ذهب الامام وذهب الحكومة البريطانية عزمها. فهي كما علمنا لم تأسر الانكليز لتذلهم وتنتقم منهم ولا، كما تبين، طمعاً بالمال، بل لتمنعهم عن السفر الى صنعاء لانها كانت تخشى اتفاقاً يتم بينهم وبين الامام . ولو قبلوا ان يرجعوا الى الحديدة لاذنت بذلك .

استمر الاسر اربعة اشهر ، فادركت اذ ذاك الوزارة الخارجية بلندن فشلها واصدرت الامر برجوع البعثة . ولكنها لم ترجع الا بعد فتنة دُبرت لحفظ كرامة الحكومة البريطانية [1] وعندما تم الاتفاق في الحديدة بين الوكيل السياسي ووفد القحراء أطلق سراح الانكليز في باجل وأعيدت اليهم الأمتعة والسلاح المحجوزة كلها [2] واصحبتهم القحراء بالفين من رجالها المسلحين يشيعونهم الى الحديدة .

اما الامام يحيى والسادة في صنعاء فقضوا العجب من هذه السياسة والأنقلاب . أتغلب قبيلة عربية حكومة بريطانيا ؟ بل الارجح انها انقلبت علينا فأنها وايم الحق تستطيع ان تبيد القحراء ، ولو شاءت ان يصل الوفد الى صنعاء لما ترددت في الوسائل ولا ادخرت من القوة في ذا السبيل .

وكانت النتيجة ان الامام ، وقد رجح انقلاب الأنكليز . بادرهم الى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم الى ذلك ؛ فلجأ ، بعد ان نفد ذرع السياسة ، الى السيف اذ صدر امره الى جيش الجنوب بالزحف على النواحي التسع المحمية ، تلك النواحي التي هي جزء من اليمن كما يثبت التاريخ ، جزء لا ينفصل عنه كما يقول السادة وامراء الجيش . وكأن الامام في هذه

---

(١) أطلق سراحنا بموجب أتفاق عقد في الحديدة ، بعد فتنة دبرت بين عقلاء القحراء ومشايخها فالعقلاء نقموا على المشايخ لانهم اسرونا ... ونهضو عليهم ... فاضطروهم ان يرسلوا وفداً الى الحديدة للمفاوضة مع الوكيل السياسي الانكليزي هناك .
هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب

(٢) قبل صلاة الظهر سلمنا المشايخ امتعتنا المحجوزة كلها ولم ينقص منها شيء . قالوا : أعطنا وصلا بها لان الصلاة لا تحل لنا قبل ان نبرىء ذمتنا فاعطيتهم الوصل فقالوا : ولكنك لم تعد الصناديق . فقلت : ولا انتم عددتموها حين حجزتموها . »
هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب

السياسة او الخطة الحربية يقتدي بالانكليز . فقد ضربهم في ناحية هي قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه اليها . ضربهم في نواحيهم المحمية ليخرجهم من الحديدة او يضطرهم ان يسلموها اليه .

زحفت الجنود وكُتب لها النصر في اربعٍ من تلك النواحي[1] فتردد صداه في اليمن الاسفل والاعلى وصاح الزيود المنتصرون : الى عدن ! وقد كان صدى الصدى في دوائر لنـدن السياسية سيئاً فاستبدلت الحكومة معتمدها في عدن واذنت بتغيير خطتها تجاه الامام .

استؤنفت بعدئذ المفاوضات ، وتبادل الانكليز والامام الهدايا عملاً بالكلمة العربية المأثورة : تهادوا وتحاربوا . حملت الجمال اجزاء سيارة الى صنعاء وسافر معها من يركبها هناك ويعلم احد الناس سياقتها ، وارسل حضرة الامام هدية من البن والخيل ، ثم عين القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن .

كان قد مر سنة على هـــذه الحال عندما كنا في صنعاء ولم تأت المفاوضات المتوالية بنتيجة تذكر . واني اذكر كلام احد رجال الامام في هذا الصدد ، قال : ما كنا نهتدي في رسائل المعتمد المتسلسلة الى الصريح الثابت من مقاصد الانكليز . وهم لا يزالون حتى اثناء المفاوضات السلمية يساعدون الادريسي علينا . لذلك ارسل حضرة الامام الى المعتمد كتاباً شديد اللهجة فيه صراحة وحق . وقد يؤمر معتمدنا بالرجوع الى ان تصدر المراجع الانكليزية العالية النبأ الثابت القاطع في الامر ... النواحي التسع لنا . هي حقنا . والحديدة كذلك لنا . ولا بـد من احد امرين ، اما البر بالوعد من قبل اصحابنا الانكليز واما الحرب . اما اذا قالوا ان حمايتهم في النواحي التسع مبنية على اتفاق بينهم وبين الترك

(١) هي الضالع والشعيب والاجعود والقطبي .

فالجواب بسيط . قد عقد ذاك الاتفاق مع دولة كانت متغلبة علينا فحاربناها وغلبناها واخرجناها من البلاد، ولا قيمة عندنا لاية معاهدة بينها وبين الانكليز بهذا الشأن . وكما اخرجنا الاتراك من ارض اجدادنا بالحرب والجهاد نستطيع بعون الله ان نخرج منها كل من يشتهي اقتفاء اثارهم .

على ان الاتراك بذلوا في اليمن الاموال ودفعوا المشاهرات للكثيرين من السادة ومشايخ العشائر فلا بأس اذا اقتفى سواهم هذا الاثر الحميد . والسيد احمد الكبسي نفسه ، الواقف بالمرصاد للانكليز ، والناطق بلسان السادة الاعاويز ، يردد اقوال الناس ولهفاتهم ، ويتأسف على عهد كانت « الظلط » تكال فيه كالبر وتبذل بلا حساب .

قد كنت اظن ان اليمن على ما فيه من اسباب التقهقر والخمول ، اشرف الاقطار العربية اسماً ، وانزهها خطة ، وامنعها جانباً ، لانه وحده اليوم مستقل اقتصادياً عن الاجانب ، اي عن الانكليز ، ويأبى التقيد بشيء من مالهم . وقد طالما سمعت من افواه العرب المتأدبين المخلصين في وطنيتهم الجاهلين اشياء من احوال الجزيرة السياسية والاجتماعية ، ان اليمن هو تلك البقية الباقية ، البقية الصالحة التي لا تنقاد بالسلاسل الذهبية الى العبودية الاقتصادية . وقد طالما قلت قبل اطلاعي على الحقيقة كلها ان هذا اليمن بفضل الامام الابر والاقتصادي الاكبر ، غني مستغنٍ . وهي وايم الحق حسنة تشفع بكثير من السيئات . ولكني ، عندما وصلنا الى « بيت القصيد » قضية الحديدة ، قلت في نفسي اسفاً : علمت شيئاً وقد فاتتك اشياء .

تلك نكبة نكبت بها امالي العربية يوم علمت بان السادة الكرام

ومشايخ حاشد وبكيل وكل من كان يقبض مشاهرة من الترك ينتظر مثلها بـــل ضعفيها من الانكليز اذا تم الاتفاق بينهم وبين حضرة الامام . وقد قبلت في ما تعهدت به ان اذكر المشاهرات لدى اولياء الامر في عدن على شريطة ان ابدي لهم رأيي الخاص بهـا . اما الرأي وقد صرحت به في دار المعتمد فهو ان الذهب مفسد لاخلاق العرب ، مفقرهم فوق ما هم فيه من فقر ، لانه يزيدهم خمولاً واتكالاً . ولا يجوز للانكليز ، وهم مدركون ذلك ، ان يستمروا في بذله مشاهرات ومسانهات ، لا استغواءً ، ولا استرضاءً ، ولا استيلاءً .

ان الخطة المثلى التي تستقيم فيها مصلحتهم ومصلحة العرب هي ان يعقدوا والأمراء عهوداً ودية تجارية ، بدون مادة الحماية ، مبنيـة على الثقة المتبادلة والمصالح المشتركـة ، وان لا يكون للسياسة ولا لادارة الاستعلامات دخل فيها. لا بأس مثلاً بقناصل انكليز في جدة والحديدة وجيزان والحساء وغيرها من البلدان ، فيقومون بوظيفتهم ضمن دائرتها المحدودة .ولكن الأمراء وعقلاء العرب لا يستحسنون بل يستنكرون وجود الوكيل السياسي في بلادهم. اني أرى الغاء هـذه الوظيفة امراً لازماً ، اللهم اذا كنا نبغي تحسين العلائق وتثبيتها بين الحكومـــة البريطانية وملوك العرب ، لاني عالم بما يؤسف له من اعمالها .

اجل ، انما هي الجاسوسية بعينها. هي هي سلاح السياسة الانكليزية في البلاد العربية ، هي خادمة الوكيل السياسي في تقاريره السرية التي تتناول كل موضوع ، وتحيط بكل حال ، وتجتاز حتى الحدود الـتي تقدسها التقاليد الى مـا وراءها من الاسرار الاجتماعية والبيتية . مثلاً واحداً يخرجنا من التعميم . اذا كان اولياء الامر واحد ملوك العرب في مأزق من المفاوضات أو العلائق ضاقت فيه عليهم الابواب ،

وكانوا عالمين بان لذاك الملك او الامير عدواً من اهله او من رعيته في بلاده ، فهم يسعون اليه بوساطة الوكيل السياسي فيستغوونه بلقب او بذهب او بالاثنين معـــاً ، ويستخدمونه على خصمهم لتحقيق مقاصدهم فيه .

ولا تخلو مفاوضاتهم مع الامام يحيى من شوائب هذه السياسة . فانك تراهم ، اذا حدثتهم في الموضوع ، يبادرون الى السؤال عن حاشد وبكيل . هوذا موطن الضعف في حكم الامـــام ، لان عرب هاتين القبيلتين في اليمن الاعلى نافرون من الحكومة متمردون عليها . وليس الى استرضائهم بوساطة مشايخهم غير المال سبيل . ان حاشداً على الخصوص مقيمة بالقرب من حدود الادريسي ، والادريسي صديـــق الانكليز وحليفهم ، وللانكليز عنده وكيل سياسي ، وكفى . افلا تراهم ولسان حالهم يقول : اذا كان الامـــام يحمل علينا في النواحي التسع المحمية فنحن نحمل عليه في حاشد وبكيل . ولكن الامام يحاربهم علنـــاً في الفلاة وهم يحاربونه بالتجسس والاغراء .

اما الخلاف بـــين الفريقين فمحوره كما ذكرت الحديدة . ولكن مطالب الامام يحيى تجاوزتها الى حدود رُفضت في دار الاعتماد . ان موقفه تجاه النواحي التسع ، اذا كان مجرداً عن الغرض السياسي الخاص ، لموقفٌ وطنيٌ شريف . ولكني اظن ان السياسة تتغلب فيه على القومية العربية فقد قبل الامام ان يخرج جنوده وعماله من الضالع والشعيب والاجعود وبلاد القُطَيبي التي احتلها ، على شرط ان تكون ادارتها وادارة اليافع والعوالق ولحج وحضرموت بيد امرائها وليس لحكومة بريطانيا ولا لحضرة الامــام حق التدخل في شؤونهـا ، وعلى شرط آخر ، هو الاول طبعاً ، وهو ان يخلي الانكليز والادريسي الحديدة

واللُّحيّة والصّليف وان تسلم هذه الاساكل البحرية وكل ما كان بيد الترك في اثناء الحرب الى الامـــام تسليماً مطلقاً لا قيد ولا شرط فيه .

اما الانكليز فالقصد الاول والأهم في تقربهم من الامام وابتغائهـم عقد معاهدة معه هو على ما أرى ان يبقوه بعيداً عنهم وعن عدن ويكون مع ذلك صديقاً لهـم . ليست عدن كما هي ظاهراً مستودع فحم فقط ، ولا هي اسكلة تجارية بين الشرق والغرب كما يودها بعض الانكليز المنزهـــين عن السياسة الاستعمارية ، والكرنل جاكوب منهم . بل هي في نظر الحكومة البريطانية اولاً وآخراً قاعدة بحرية ومركزٌ حربي خطير . فـاذا كانت كذلك فتأمينها اهم مـا ترغب الحكومة فيه . واذا استطاعت ان تؤمنها الى حد تستغني فيه عمـــا تضطر ان تقيم هناك من التحصينات الحديثة والجنود فـلا تقصر في ذا السبيل سعياً .

غني عن البيان اذن ان الحكومة البريطانية ، وهذا قصدها الاهم ، لا تتنازل عن معاهدات عُقدت بينها وبـــين امراء النواحي التسع المحمية . وانما تبغي توسيع نطاق الحماية ، وقد ترضى بالولاء فقط ، ليتناول كذلك قسماً من اليمن الاعلى . اما الحديدة فامرها من هـذه الوجهة ثانوي (١) . ولكان افلح الانكليز لو اتخذوا مع الامام خطة فيها على الاقل عزم وصراحة . لكنهم يسلكون الى محجتهم السبيل الذي تقدم ذكره ، فـيماطلون ويسوفون ويحاولون اضعاف الامام وافساد

---

(١) يثبت هـــذا القول ان الحكومة البريطانية لم تتعرض للامام عندما احتلت جنوده في نيسان ١٩٢٥ الحديدة والاساكل الاخرى التي كان يطالب بهـــا اي اللحية والصليف .

امره بوساطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه ، وفيهم الخائن الطامع بالمال والمكابر الطامع بالسيادة .

ها قد بسطت مطالب الفريقين في اعلى درجة من درجات الوطنية والسياسة . اما ما قد يتنازل كل فريق عنه الى درجة تقترن فيها المصلحة بالعدل والانصاف ، والوطنية — الانكليزية او اليمانية — بالمعقول ، فهو لا يزال تحت البحث ورهين المفاوضات .

تتمة المفاوضات

الوفد الفرنسي – المنافسات السياسية – الامتيازات – المعاهدات – الفرنسيس والانكليز في افغانستان وفي اليمن– غريب على غريب– الامام يستفيد–احتكار تجارة البن – ميناء المخا – السلاح–الدخيل في عسير – الخطأ في سياسة الامام–المثلث الزوايا في قضية الحديدة– الانكليز بين السيد والامام . الشوافع حائرون–الامر ناضج للسلم – المؤتمر – برقية وكتاب الى صنعاء – الجواب .

لو كان الفرنسيون الذين غشوا صنعاء يوم كنا فيها يعرفون بعض الشيء من اصول الاسلام وعادات المسلمين لما جاؤوا في شهر رمضان يبغون من الامام امتيازاً ، ومعهم من الخمر انواع يحتسونها في الطريق وامام الخدم في عاصمة الزيود . فان تمسكهم ببعض عاداتهم التي كان ينبغي ان يتنازلوا عنها اكراماً لاهل البلاد ، ولخير انفسهم لو عقلوا ، اثار عليهم ولا شك تعصب الخدم الزيود فسقوهم وراء الخمر ماء الوضوء من بركة الشاذروان .

قد لا يهم الفرنسيين ذلك وهم كما ادعوا تجار ينشدون المصلحة . لكن بعض العارفين قالوا : انهم سياسيون جاؤوا يبارون الانكليز في خطب ود الامام . لذلك لم تأمر الحضرة الامامية استقبالهم رسمياً ، وعندما وصلوا الى بوابة صنعاء اوقفهم الحرس هناك ليعلموا الامام ، فأذن لهم بالدخول . ثم بعد ثلاثة ايام جازوا شرف المثول بين يديه .

ولكنهم منحوا ما حُرمناه وهو الاذن بزيارة « جرجي » مدير معمل الخرطوش . كأن لكل ما يأذن او يأمر به الامام معنىً خاص يخفى احياناً على ضيوفه اصحاب الانعـــام . ان في اجتماع الفرنسيين

بجرجي برهاناً واحداً على ان مهمتهم تتجاوز حدود التجـارة . هوذا معمل الامام ، وهوذا احد رجالـكم ايها الافرنج في خدمتـــه ، فهو يستغني اليوم عنـكم في الذخيرة وسيستغني عنـكم غداً في السلاح . فاذا عاهدكم فكأفران يتبادلون المنفعة .

اما الفرنسيون فيغارون ، كما هو معلوم، من الانكليز ويقتفون اثرهم حيثما ضربوا وحلوا . عقـد الانكليز امس معاهدة مع امـــير افغانستان فتقفاهم الفرنسيون واثبتوا امرهم سياسياً وفنياً هناك. احس الفرنسيون ان الانكليز يبغون عقد معاهدة مع امام صنعاء فسارعوا الى منافستهم في اليمن، والامام مطلق الارادة يمنح امتيازاته من يشاء، ويعقد المعاهدات مع من يشاء .

على ان الفرنسيين سبّاقون في اليمن وفي تجارة البن . فقد تقـــدم ذكر البعثة التي جاءت عن طريق المخا في العقد الاول من القرن الثامن عشر وعقدت معاهدة تجارية مع الامام المهدي لدين الله تدل شروطها على حكمة تتسع عندها لمصلحة البلاد حدود الدين ، وتتفكك من اجلها قيود المذاهب . والامام يحيى اليوم يقتفي اثر اجداده الكرام، يستعين كذلك في سياسته بحكومة افرنجية على اخرى . هي خطة في السياسة تجوز ، وقد تفيد اذا وقف صاحبها عند حد معقول .

اما اذا عاهد امير عربي دولتين من دول الافرنج واذن لهما بشيء من النفوذ داخل بلاده فتكون الاثنتان بلية عليه وعلى بلاده . تقتتلان في سبيل المصلحة فتقتلانها ، فضلاً عن الدسائس والتحزب. فاذا كان الامير محبوباً الى رعيته جمعاء ، لا يلبث ان يصير له فيها مناوئون واعداء . واذا كان له عدو واحد في رعيته لا يلبث ان يصير للعدو حزب سياسي . واذا كان في البلاد حزب واحد على الامير يصير فيها

حزبان وثلاثة .

اننا نعلم حق العلم ان كل وكيل سياسي في بلادٍ تربيتهـا الوطنية ناقصة يتخذ له حزباً من اهل البلاد الناقمين لاغراض خاصة على حكومتها، فيستخدمه لمصلحة حكومته .

اجل ، اذا كان ثمة خير في مفاوضة طرفين بامر واحد فان ذلك الخير يزول اذا اشرك به الاثنان . وحضرة الامام يحيى يدرك ذلك ، فهو يستخدم الفرنسيين اليوم ، كما يستخـدم الملك حسين الايطاليين لينال من الانكليز كلّ او جلّ ما يبغيه واول بغياته واهمها الان ميناء اليمن الاعلى على البحر الاحمر . جاءت البعثة الفرنسية تطلب امتيازاً باعادة بناء ميناء المخا المهدوم ، وميناء آخر في الخوخه ، وباحتكار تجارة البن ولكن الامام ، اذا استعاد الحديدة ، فقلما يهتم المخا والخوخه . الا انه يريد أن يفهم الانكليز انه يستطيع ان يستغني عن الحديدة اذا اقتضى الامر وان يستغني عنهم كل استغناء في جميع الامور .

قد قال لنا الامام ان هؤلاء الفرنسيين تجار جاؤوا يبحثون عن احوال التجارة عندنا ويطلبون امتيازاً في المتاجرة عن طريق المخا . وقد علمنا انهم لا ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه وهو احتكار تجارة البن . فالامام لا يسلم بذلك ، ولكنه يعاهدهم على بيع حصتـه او بالحري الاعشار من البن التي تبلغ عشرة الاف كيس في السنة ، ويشتري منهم ما يوافقه من السلاح .

السلاح ! لا شيء في البلاد العربية اكثر من السلاح ، ولا رغبـة لامراء العرب اشد من رغبتهم فيه . فما الداعي الى هذا الطلب الدائم وخصوصاً في اليمن ؟ تذكر ايها القارىء جواب الامام عندما سألناه كم يحكم من بلاد اليمن واهله . فقال اليسير ، اليسير . وهو يطمع ببسط

حكمه وسيادته على اليمن كله – اليمن القديم من عُمان حتى آخر بلاد عسير . وقد طالما سمعت في صنعاء ان الامام في احترابه والادريسي لا يريد ان يوقف عدوه عند حدوده المعلومة فقط بل يريد ان يخرجه من بلاد اليمن وعسير كلها ، لانه كما يدعون دخيل فيهـا . كنت اسمع هذا الكلام ساكتاً لاني لم اكن اعلم يومئذٍ غير اليسير من أمر السيد الادريسي وبلاده .

ولكني بعد رحلتي في عسير ، وزيارتي السيد في جيزان ، ومحادثتي الناس من سادة وعامة في تهامة ، بان لي الخطأ في سياسة حضرة الامام ، وتأكدت انه من العسير ، بتلك السياسة ، ان يستولي على الحديدة . وانـّي له ذلك والانكليز لا يزالون اصدقاء الادريسي وهم اصحاب السيادة في البحر الاحمر؟ فهم اذا استحسنوا عقد معاهدة بين السيد في جيزان والملك حسين لا يستحسنون على ما اظن مثلها بين الملك والامام . وقد يقبلون بعقد معاهدة او اتفاق بين الثلاثة اذا كان ذلك برأيهم ومؤازرتهم .

ان القضية في اجلى بيان تتحلل الى ثلاثة اجزاء ، الاول والاهم هو وجود الانكليز بين الامام والادريسي . الثاني هو وجود الشوافع عوناً للانكليز اليوم كما كانوا بالامس عوناً للاتراك في سياستهم اليمانية . والثالث هو وجود الحديدة ، وهي محور النزاع ، بين الشوافع والزيود والانكليز . وقد امست بفضل السياسة والفوضى اليفة الخراب والبلاء .

قد كان الادريسي يومئذ يميل الى السلم اذا حُددت حدوده على حال مرضية . وكان الانكليز قد قطعوا عنه المشاهرات والسلاح وبدأوا يشعرون بفتور منه . فاستحسنوا ميل المسالمة والمفاوضة رغبة في صداقته وصداقة الامام . اما الشوافع فكانوا قد قاسوا من الاحتراب

الدائم عذاباً واهوالاً ، فكرهوا لذلك الامامين ، وغدوا في حال تحبب اليهم اصغر الشرين .

اذا كانت الحديدة باب النزاع اذن فهي كذلك باب السلم . وكان الامر كما بدا يومئذٍ ناضجاً للسلم ، فلم يبق غير الوسيلة الى ذلك . فارسلت الى صنعاء برقية اعرض فيها عقد مؤتمر فجاءني الجواب وليس فيه غير ما طالما سمعته هناك : لا حق للادريسي في جميع اليمن . لا حق للانكليز لا قبل ولا بعد الدور العثماني في الحديدة لا ثمرة في المؤتمر ، الدواء كله في عدن .

ولكن عدن تستحسن المؤتمر وكان قد ارسل المعتمد الجنرال سكوت لاسلكياً يهنئني برجوعي من صنعاء ويقول انه راغب في محادثتي . ولكنني لسوء الحظ تأخرت في الحديدة وفي جيزان وكان وصولي الى عدن يوم سافر المعتمد الى لندن . فقابلت معاونه الاول والحاكم بالوكالة يومئذ المايجر بارت° وبعد ان تحدثنا ملياً في الموضوع ارسلت الى صنعاء بواسطة مندوب الامام في عدن هذه البرقية :

اني متفائل مستبشر لاني وجدت ارتياحاً الى المسالمة ورغبة في تحقيق مطالبكم بشروط لا بد منها . اي انهم يرغبون في ان يسلموا الحديدة الى الامام ولكنهم متعاهدون مع الادريسي ولا يرون لانفسهم مخرجاً في غير التسوية السلمية بين الطرفين اي بينكم وبينه . فهل تقبلون بذلك ؟ هل يقبل حضرة الامام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من قبله وممثلون من قبل الادريسي وممثل من دار الاعتماد اذا وعده المعتمد رسمياً بتسليم الحديدة على شرط ان يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الادريسي ؟

قد قابلت السيد في جيزان فوجدته راغباً وميالاً الى الاتحاد

بشرط ان يُعترف به حاكماً في لواء عسير . واظن ان عقـــد الصلح ممكن بينكم وبينه على شرط تسلمكم الحديدة وارضائه في الحدود الشرقية او الشمالية . ولا يتم الصلح الا بحسن النية وبالاجتماع والمداولة . عرفوني حالاً اذا كنتم تقبلون لاطلب لكم كلمة رسمية من الحكومة الانكليزية بخصوص الحديدة .

عدن في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٩٢٢

بعد اسبوعين من هذا التاريخ وانا انتظر في عدن أتحمل آلامي العصبية من حرها وسوء هواها حباً بخدمة البلاد العربية خدمة صافية ، جاءني من صنعاء بالسلك الى القاضي عبدالله العرشي في تعز ، ومنه مع نجّاب الى لحج ، ومنها مع رسول الى عدن ، الجواب التالي . وكان السلك كما اخبرني العرشي مقطوعاً من شدة الامطار « فتحير » اي تأخر وصول الجواب .

« كانت المراجعة مع صاحبنا قد عرفتم حسن نيته ومحبته لكم . لكن الادريسي لا حق له في اليمن باي صورة من الصور المشروعة . وصاحبنا حقوقه واضحة معلومة عند الجميع . ونحن لا نحب الا نجاح مسعاك ونحب صون بقية بلادنا عن الذهاب . لا لزوم للمؤتمر مهما كانت الحكومة الانكليزية تريد ذلك فانتم تقومون بكمال هذا الامر . وكل الصلح بيد الحكومة الانكليزية . وسنجد على صاحبنا بقبول ما اشرتم اليه من حاكمية الادريسي على عسير وتسليم الحديدة وما كان بيد الاتراك عند تسليمهم الى الامام . وضّحوا المشير اليه الحقائق . واقبلوا فائق الاحترام » ،

ما الحيلة بسادتنا العرب ، أبناء عمنا ، اخواننا ؟ نريد لهم الخـــير الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخـــير الوقتي . اني

على يقين ان لو قبل حضرة الامام بعقد المؤتمر لكان السلم اليوم مخيماً على البلدين والولاء والتجارة صلتا العمران بينهما .

قبل ان سافرت من عدن بعثت بكتاب آخر الى صنعاء لامكن هناك الفكرة التي بدأت تحل في سياسة الامام محل الاستئثار ، انقل منه ما يلي :

الامر ميسر على شرط ان يتم السلم بينكم وبين الادريسي . ومن العبث ان تحاولوا اخراج الرجل من البلاد . ان حجتكم في قضية الحديدة ظاهرة ثابتة ، يحضركم فيها كل من اطلع على الحقائق . ولكن حجتكم في اخراج الادريسي على وجه انه دخيل لا يوافقكم عليها الناس . واذا تمسكتم بهـــا تضرون مصلحتكم وتضعفون حجتكم في طلب الحديدة .

المعـاهدة

الامارات العربية القديمة – توحيد الكلمة الدينية – توحيد السياسة – المداخلة الاجنبية – ملك العرب وملك الحجاز – المعـاهدات مع الحكومات الاجنبية – الدفاع والهجوم – تهامة جزء من اليمن – تحديد المعاملة بالنقود الفضية – معمل للسلاح – مندوب للامام في مكة – مندوب للملك في صنعاء – صندوق التوفير من مـال الزكاة – الانشاءات العمومية – كتاب الى جلالة الملك حسين بخصوص المعاهدة – الختام .

بما ان المساعي التي تقدمت سعينا والتي ستتبعه هي ذات شأن في تاريخ القضية العربية أرى من الواجب ان انشر صورة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع حضرة الامام . وها هي بكاملها وبالحرف الواحد:

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ان المقصد الوحيد من هذا الائتلاف والاتفاق هو الانتظام في سلك وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تفرّقوا وبه يكون التعاون والتعاضد على انفاذ احـكام الله كما يجب في جميـع البـلاد لعمرانها واصلاح شؤونها وكف ايدي المعارضين عن التدخل فيهـا والاخلال بمصالحها وبراحة اهلها وتأمين معاش سكانها وتقوية صناعتها وتجارتها . فلذلك عقدت هذه المعاهدة بين حضرة الامام المتوكل على الله يحيى ابن المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين وبين جلالة الملك الشريف حسين بن علي بن عون على ما تحويه المواد الآتية لتكون دستوراً للعمل بعد تقدم اصلاح النيـة وجعل الاعمال مدارة على الشريعة

الاحمدية في الاقدام والاحجام والنقض والابرام .

اولاً — البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها القديمة وتحويل امرائها المشهورين المعلومين الذين يجرون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها منذ قرون . وانما المطلوب اجتماع الكلمة الدينية[1] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية خارجية من اية الجهات تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها[2].

ثانياً — يعترف حضرة الامام لجلالة الملك بالملك ويعترف جلالة الملك لحضرة الامام بالامامة [3] .

ثالثاً — يختص حضرة الامام بادارة اليمن وسياسته الداخلية والخارجية كما كان بيد اسلافه ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . فليس لاحدهما احداث مقاولة

---

(١) « المطلوب اجتماع الكلمة القومية والدينية » هي الاصل الذي وضعناه فابدل به الامام ما تراه في البند وسلمنا بعد المناقشة « باجتماع الكلمة الدينية » وقبل حضرته بان يضاف اليها « وتوحيد السياسة » .

(٢) كان قد وقف الامام عند « المداخلة الاجنبية الخارجيـة » اطلاقاً فاضفنا اليها الكلمات : « تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتهـا » كي لا تنفي المـادة المداخلات التجارية والاقتصادية والتهذيبية « ولا يخفى ما في مثل هذه المداخلة المجردة عن العوامل السياسية من الخير للبلاد العربية . ان حضرة الامام مثل سائر امراء العرب مقتنع بذلك .

(٣) كانت هذه المادة في النسخة الاولى من المعاهدة ان حضرة الامام يعترف بالملك حسين ملك العرب . وصرفنا اسبوعاً في المفاوضات بهذا الشأن ، فجاءني السيد احمد يوماً بعد منتصف الليل يوقظني ويقول : يسلم عليك حضرة

اجنبية في ما يتعلق بما تحت ادارة الثاني من البلاد ولا يغير شيئاً مجعولاً من طرف صاحب ادارتها ولا يتدخل في ادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة الا ان يكون بعد المشاورة بينهما[1] والاتفاق لمصلحة تطابق مراد الله سبحانه . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاولة اجنبية في ما يتعلق بمملكة الآخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يكون معتمداً . وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الآخر في ما يتعلق بخاصة عاقدها ومملكته ولا تعتبر نافذة في ما يتعلق بمملكة الثاني اذا اشتملت على شيء من خصوصياتها ولا يعد هذا الاتفاق ناقضاً لما تقدمه من المعاهدات بين حضرة الامام والحكومة العثمانية او بين الملك واحدى الحكومات .

تابع شرح صفحة ٢١٧

الامام ويسألك خصوصاً ان تساعده في النظر بهذا البند . لا يمكننا ان نعترف بما هو غير الواقع ويأبى الامام ان يمس شعور جلالة الملك . فكيف العمل ؟ هل عندك حل لهذا المشكل ؟ يبغيه حضرة الامام منك فعدلنا وبدلنا وتناقشنا ساعتين وانا احاول الدفاع عن قضية ضعيفة جانبها . وقد رأيت فوق ذلك بعد السياحة في اليمن ان ملك الامام خمسة اضعاف ملك الحجاز مساحة وعدداً وقوة فقبل السيد احمد اخيراً بما اقترحته حلاً لهذا الشكل وهو النص الحالي. وقد اضفت في المادة الثالثة بعد «ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز» كلمة «وغيره» .

قد يكون قبل الامام في المفاوضات السابقة ان يعترف بالملك حسين ملك العرب ولكن سياسة الملك بعد الحرب وخسارة الحجاز في وقعة تربة حملتا الامام على تغيير رأيه في الموضوع .

(١) كان الامام مصراً على رفضه عقد المعاهدات مع الحكومات الاجنبية وخصوصاً في ما يتعلق بالامور الخارجية. فقبل بالجملة الشرطية «الا ان يكون بعد المشاورة بينهما» وبكلمة «منفرداً» في الجملة التالية : «اذا فعل احدهما شيئاً من ذلك ... منفرداً» ..

رابعاً ـ بعد امضاء هذه المعاهدة يكون كل من حضرة الامام وجلالة الملك ومن تجري عليهم اوامرهما الشريفة من الامراء والتبعة عوناً للآخر ونصيراً له في دفع كل عدو صائل من الخارج او معارض من الداخل . وهذا التعاون والتناصر يكون موقوفاً على الطلب من اي الجانبين عنـــد الاحتياج واللزوم وفي دائرة النصوص الشرعية .

خامساً ـ عند ظهور عدو مشاق للطرفين اذا لزم لاحدهما امداد من الثاني فعلى من تطلب منه الاعانة اعانة الطالب بمقدار مايدخل تحت امكانه من مال او رجال او سلاح او معدات حربية . وعلى الطالب للامداد بالرجال لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة .

سادساً ـ بما ان المقدم قبل كل شيء تأمين طرق المواصلة والمراسلة بين الحجاز واليمن من الطريق الاسهل والاقرب لامكان المفـــاوضة والمواصلة بسرعة في كل ما يلزم ، ومن المعلوم وجود الحائل في تهامة التي هي جزء من اجزاء اليمن ، فاللازم تقديم التعاون الحائل المانع من الحديدة ونحوها باي وجه كان اما بسياسة يتفق عليهـــا او بقوة يكون سوقها من الجانبين بعد تقديم المذكرات اللازمة في كلا الامرين وصفة المعاملات والحركات من الجانبين [1] .

---

(١) سلمنا بهذه المادة ونحن عالمون بان المراد بها السيد الادريسي ولكننا لم نوافق عليها الا بعد ان اضفنا اليها الجملة الاحتياطية وهي « اما بسياسة يتفق عليها » بعد الكلمات « باي وجه كان » وقد كنا نأمل ان يعقد بعدئذ معاهدة بين الادريسي والملك حسين . فيكون جلالته اذ ذاك صلة الوصل او الواسطة السلمية بين السيد والامام حليفيه فيتمكن « بسياسة يتفق عليها » من اصلاح ذات البين في تحديد حدود ترضي الفريقين . انظر المعاهدة التي عقدت مع السيد الادريسي وكتابي الى جلالة الملك حسين بخصوصها في موضعه من الكتاب .

سابعاً ــ السكة الفضية الخالية من الغش وانواع الربى التي تضرب في الحجاز باسم صاحبها معينة قيمة تداولها تكون مقبولة ومعتبرة في التداول في المملكتين بقيمتها المعينة بعد الاعلان كتابة من الجانب الذي يكون ضربها باسمه بكيفية للتداول وكمية القيمة والصفة المميزة للسكة .

ثامناً ــ تعيين مندوب من لدن جلالة الملك في صنعاء ومندوب من لدن حضرة الامام في مكة المكرمة لمداولة الافكار والتوسط فيتعاطي المفاوضات والمذاكرات .

تاسعاً ــ معلوم احتياج المملكتين لانواع الاسلحةوالمهمات الحربيةوسائر انواع الترقيات الفنية واحتياجها الى ايجاد معامل وآلات لعمل الاسلحة وغيرها تقوم بالمقاصد . وبعد امضاء هـذه المعاهدة من الجانبين تكون المراجعة وتقرير ما يلزم من الاسباب والوسائل والمقدمات والاستعدادات لايجاد المحتاج اليه من المعامل ومحل لتأسيسها واستعمالها مناسب جامع لمقاصد الطرفين وكيفية الاعمال وكل ما يلزم لذلك منالمصاريف والمأمورين والمحافظين والعملةوغير ذلك .

عاشراً ــ يكون تعيين مبالغ من الاموال معلومة مخصوصة لكل سنة بمقدار يكون الاتفاق عليه لتصرف فيما ذكر في المادة التاسعة من الاعمال الضرورية او ما يتفق عليه من الانشاءات والاستعدادات العمومية المهمة . وهذه المبالغ تحفظ من كل جانب ما يتعين عليه في خزينته الى وقت اللزوم وتعقد تأمينات يتفق عليها بين الطرفين ويتعاطاها الطرفان لتأمين تأدية كل ما يلزم منها في وقته وزمانه بحيث لا يتضرر احد الجانبين ولا يكون من احد تأخر بحصول

المقاصد [1] .

احدى عشرة – هذه المواد الاساسية يستمر حكمها الى عشرين سنة واذا كان الاتفاق في خلال المدة على تعديل شيء منها او تبديله او طيه بحسب ما تقتضيه المصالح وتداول الافكار فكل ما يستحبه بعد تقريره فحكمه حكم هذه المعاهدة . وبعد تمام العشرين سنة يكون تجديدها كما هي او تبديل ما يتفق على تبديله ان شاء الله تعالى.

حرر في صنعاء في ١٨ شهر رمضان سنة ١٣٤٠

وقد ارسلت المعاهدة مع صديقي قسطنطين يني مصحوبة بكتاب الى الملك من حضرة الامام وكتاب مني انقل منه ما يلي :

قد تفاوضنا في الامر الذي جعلت احدى غايات رحلتي في البلاد العربية الاهتمام به والسعي في بسطه لدى امراء العرب وتقريبه من العقول في شكل عملي معقول . فلقينا في الامام يحيى اعزه الله اذناً صاغية ، وهمة للعمل داعية . وهو في موقف الولاء ولا شك ثابت القدم مخلص القصد والنية . الا انه لا يحب ان يكبر في البدء خطواته ، ولا ان يوسع كثيراً صراطه . وان التمتع باليسير الآن ، خير من الامل بالكثير . قد كانت لنا جلسات طويلات ومباحثات ومناقشات ، يسمعكم الصديق قسطنطين خبرها ، ويعلمكم بما بذلته في سبيل المعاهدة المرغوب فيها وفي توسيع بنودها بقدر الامكان لتعم ما ننشده من الوحدة العربية وقد فزنا بجل المرغوب وسلمنا ببعض

---

(١) ان المقصود من هذه المادة انشاء صندوق توفير من مال الزكاة في كل امارة ومملكة عربية لبذله في المشاريع العمومية المشتركة مصالحها بين الجميع لمد السكك الحديدية والاسلاك البرقية وتعبيد الطرقات وغيرها وهي احدى الفكر التي كنت ابثها وابشر بها هناك والتي صادفت استحسان جميع ملوك وامراء العرب . وعقدوا النية على العمل بها اما تضامناً واما انفراداً .

الجزئيات التي لا تقدح بروح القضية او تمس بجوهرها .

ومن الحقائق التاريخية يا مولاي ان النهضات الخطيرة في الامم لا تنشأ نشأة واحدة كاملة . فلا بد لها من خطوات الى ذلك الكمال وتطورات في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال . اما المعاهدة في صورتها الحالية فهي خطوة اولى مهمة . فعسى ان تستحسنوا عملنا وتروا ، وانتم مصدر الحكمة ، صواب رأينا . وفي المستقبل القريب ، بعد ان يتم توقيع المعاهدة ، تتوفقون ولا شك الى اضافة بنود بخصوص توحيد الامور الاجنبية ، والنقود ، والتمثيل الواحد في الخارج وغيرها . اذ حين تتم وسائل المواصلة بين جلالتكم وحضرة الامام ويكون له مندوب عندكم ولكم مندوب في صنعاء تتبادلون مباشرة الآراء وتتوفقون ان شاء الله الى ما فيه تمام تعزيز المصلحة العربية والاسم العربي داخل البلاد وخارجها .